العقلُ قيدُ

من الأميـــة إلى الاستنارة

أ.د. عقيل حسين عقيل

2022م

العقلُ قيدٌ

(مِن الأميَّةِ إلى الاستنارةِ)

تأليف

أ د. عقيل حسين عقيل

2022م

(الشّعوبُ لا تريدُ أنْ تسمع خطابات عن الوطن، بل تريد أنْ تعرف ماهيَّة الوطن الذي ينبغي أنْ تتمسّك به سيادة وهويَّة، فمثل أولئك عندما يخبرونك عن الوطن فهم كمن يخبرك عن كتابٍ، وليس له ما يقدِّمه من الكتاب إلَّا غلافه).

العقلُ قيدٌ إِذَا لُجْمٌ جوامِحُه وشهوةُ النَّفْسِ بَيْنَ النَّاسِ تُبْتَذَلُ

والعقلُ حرٌّ إِذَا فُكَّتْ كوابِحُه وعفةُ النَّفْسِ بَيْنَ النَّاسِ تُمْتَثَلُ

جدول المحتويات

المقدِّمةُ 6

العقلُ استنارةٌ 8

الاستنارةُ قيدًا 16

الاستنارةُ بين قيدٍ عليكَ وقيدٍ لكَ 18

العقل قيدٌ 19

العقلُ قيدًا بين قاعدةٍ واستثناءٍ 28

العقلُ إدارة قيدٍ 39

قيدُ العقل أمِّيَّةً 57

العقلُ أميَّةً واستنارةً 61

العقلُ قيدُ هويَّةً 64

العقلُ قيدَ وهمٍ 72

قيدُ الوهمِ سرابًا 77

العقلُ قيدُ خوفٍ 90

قيدُ العقلِ بين خوفٍ وجبنٍ 95

الخوفُ قيدٌ ومعياره التَّوازن 108

قيدُ الدِّراية 117

العقلُ بلا دراية 125

العقلُ والفكرةُ قيدًا 130

الفكرةُ قيد خوفٍ ودرايةٍ 141
صدر للمؤلّف 149
المؤلّفات 150
المؤلّف في سطور 169

المقدِّمةُ

مع أنَّ للعقل البشري كمًّا من المفاتيحِ لفكِّ التأزُّمات، فإنَّه أمام الصِّعاب يحتارُ قبل أن يقرِّرَ ويقبلَ بالتَّحدّي، وأمام الخوارق يشكُّ حتى تَحدث له النُّقلة المفاجئة، وأمام المعجزات يستسلم حبًّا للعلم اليقين، أمَّا أمام المستحيل فيقف عاجزًا؛ إذ لا مقدرة.

ومن هنا بقدر ما يكون العقل قيدًا على ما يُمكن أنْ يقوم به تفكيرًا، وبحثًا، وتحليلًا، وتشخيصًا يُمكِّن من إنجاز الأهداف، وتحقيق الأغراض، وبلوغ الغايات، ونيل المأمولات، فإنَّ القيود تُكبِّلهُ أمِّيَّة؛ حيث لا دِراية، وفي المقابل الدّراية تقيّده وعيًا واستنارة؛ حيث التبيّن الذي يحول بينه وما لا ينبغي الإقدام عليه إرادة.

وبين هذا وذاك يُصبح الخوف ملازمًا له، ولا يفارقه؛ حرصًا على سلامة التفكير، وصدق القول، والحكمة من الفعل، والإخلاص في العمل، والقدوة في السُّلوك.

ومع أنَّ العقل الإنساني يستنير بالفكرة الكَاسرة لقيوده، فإنَّه يعرف أنَّ الفكرة في زمن ولادتها عقلًا هي القيدُ ولا شيءَ سواها، مما يحفِّزه فكرًا على إمكانيَّة إيجاد فكرة أخرى تخلّصه من قيود تلك الفكرة. وهذا الانشغال العقلي لا يدلُّ على وجوب التخلّص من الفكرة بالفكرة السّالبة، بل العقلُ وبغاية الإيجابيّة يسعى وعيًا واستنارة لمعرفة حقيقة ما يفكّر فيه ويشغله حيرةً.

ومع أنَّ العقل الإنساني طليقٌ لا يدعو إلَّا إلى القيم الإنسانيَّة معرفةً أخلاقيَّةً، فإنَّ قيود الخصوصيَّات الاجتماعيَّة، والسِّياسيَّة، والاقتصاديَّة، والثَّقافيَّة، والعرفيَّة، والدِّينيَّة، والذَّوقيَّة جُلّها تلقي عليه قيودًا تجعله حائرًا بين الوقوف عندها أو أن يتجاوز القيود.

ونحن بين هذه وتلك ارتأينا أنْ نبذل جهدًا لعلّه يكون بين أيدي القراء مفاتيح، تُمكِّنهم مِنَ المعرفةِ درايةً واستنارةً، وفي المقابل فمن تكون له فكرة في غير فكرنا، فالفكرةُ مع الفكرةِ تتلاقحُ.

أ د. عقيل حسين عقيل

2022م

العقلُ استنارةٌ

استنارةُ العقل مع أنَّها لا تكون إلَّا عن وعيٍ ودرايةٍ وترشد لما يجب اتباعه، فإنَّها ترشد أيضًا إلى ما لا يجب اتباعه بوضعها علامة: (قف) قيدًا دونه؛ ومن هنا فالواعون لا يقدمون على مخالفة منظومة القيم التزمًا بقيدها خُلقًا، وفي المقابل عقول غيرهم ممن هم دونهم قيمًا لا تخشى قيد القيم، بل تقدم على كسره دون أن تنتظر وقتًا.

فعندما تظل الشُّعوب منتظرة لاستيعاب الثّقافة بغاية كسر قيدها، فإنِّها ستكون في حاجة لمزيدٍ من الوقت؛ وفي المقابل عندما تعي الشُّعوب الحقيقة تُصبحُ قادرة على تجاوز الواقع وإحداث النُّقلة؛ ومن ثمَّ فزمن الانتظار لن يجد مكانًا له ليحل فيه أمام الدّراية التي بتجاوزها لزمن الأميَّة تتجاوز زمن الثّقافة والوعي؛ فالدّراية تجاوز معرفي لكلِّ ما من شأنّه أو يوصف جهلًا، أو أميَّة، أو علمًا، أو فكرًا وثقافةً وهي التي تحدثُ النُّقلة من معرفة الممكن إلى معرفة المعجز والمستحيل.

ولذا فالشُّعوب العربيّة التي كشفت حقيقة حُكَّامها كرهًا؛ ثارت على زمنهم بلا رأفة، وطوت صفحاتهم: (ثورةُ وعي ولا قيد ثقافة)، ومع أنَّ الثقافة استنارة عقلٍ، فإنَّها أمام العقل قيدٌ على ما ينبغي اختياره والإقدام عليه، وما لا ينبغي اختياره والإحجام عنه؛ ومن هنا فعندما تغيب الدّراية يصبح زمن الانتظار معطية من معطيات الأميَّة التي لا تملَّ من الانتظار وإن طال زمنه، ولهذا فالزّمن قادرٌ على قيد الأميّة وتجاوزها وعيًا، أمَّا الأميَّة

فلا إمكانيّة لها بذلك؛ ذلك لأنَّ أهل الأميّة غير قادرين على إحداث النُّقلة وصُنع المستقبل أملًا ومأمولًا.

ولأنَّ الوعي استنارة لا يقيده الزَّمن فهو العقل ولا قيد عليه، وفيه يتساوى الأمي معرفة مع من يدري ويتدبَّرَ؛ أي: يتساوى الأمي فيه مع من تعلّم وتثقَّف ودرى؛ قال تعالى: {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}[1]، في هذه الآية الكريمة ارتبطت الأذن مع الوعي ولم تستقلّ عنه، وهنا فهي الأذن المميّزة لما تسمعه أو تنصت إليه؛ إنَّها المميزة بين المسموع معرفةً والمتجاوزة له؛ كونها الأذن الواعية التي لا تأخذ بالمسموع إلَّا دراية.

ولأنَّ الوعي يُمكّن من معرفة الحقيقة المراد البحث عنها، فإنَّه المؤدّي إلى الفطنة الممكِّنة من التمييز واتخاذ القرار المناسب حتى وإن كان صاحبهُ أميًّا، فالحقيقة كما يلمّ بها الأمي ويعرفها يلمّ بها كلًّا من المتعلّم والمثقّف ويعرفانها، وبخاصّة في الزَّمن الذي لا شيء فيه يُخفى؛ إذ كلّ شيء على البلاطة.

والوعي لا يقتصر على المتعلّمين والمثقّفين، بل الأميون لهم من الفطنة ما لهم؛ ذلك لأنَّ الوعي والفطنة لا يقتصران على من تَعلّم، فمع أنَّ المتعلمين تحصَّلوا على رخص قيادة (شهادات ومؤهلات جامعيّة وعليا) فإنَّ بعضهم لا يستطع أن يقود وسط الازدحام.

[1] الحاقة: 12.

ولهذا فالوعي ليس دائمًا مولود تعليمٍ، فمن المتعلّمين مَنْ لا ثقافة لهم ولا وعي ولا دراية، وفي المقابل من الأميين ما لهم من الحكمة والمعرفة ما لهم، ومع أنَّ كيفيَّة البحث والتقصي عن الحقيقة في المدارس والجامعات منهجيًّا تُعلّم، فإنَّ الحقيقة عبر التَّاريخ تروى وتسمعها أذنٌ واعية.

ومع أنَّ الأذن الواعية تسمع فتتعظ وتتدبّر، فإنَّ الأذن غير الواعية وإن سمعت فإنَّها لا تتعظ ولا تتدبّر؛ ولهذا جاء قوله تعالى {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}، ففي هذه الآية الكريمة جاء الوعي مرتبطًا بالسّمع ولم يأتِ مرتبطًا بالأذن السَّامعة؛ إذ جاء ارتباط الأمر بالسّمع وليس بالأذن؛ ذلك لأنَّ الوعي مقدرة على التمييز بين ما يجب وما لا يجب أخذًا وانتهاءً.

ومع أنَّ الأذن في دائرة الممكن تسمع ما يقال أو تستمع إليه، فإنَّ الأذن الواعية لا تأخذ بكل ما تسمعه، فهي وإن سمعت قادرة على الغربلة والتفحّص والتمييز؛ ولذا فبمعرفة الحقيقة يستوي وعي الأمّي مع وعي من تعلَّم وتثقّف ودرى؛ ومَن غفل منهم بأيّ علّة فقد استوى في غفلةٍ مع غيره؛ ومن هنا فالعقل قيد أمّيّة ودراية.

فالعقلُ دراية هو تلك الحيويّة المستنيرة وعيًا، وهو الذي يعلم بالشيء بعد أن كان لا شيء ومجهولًا، كما أنَّه يعلم الحكمة التي تُخفي من ورائها سرًّا.

والعقل دراية ليس ذلك العقل الممنهج برؤية تعليميَّة وثقافيَّة، بل هو ذلك العقل المتجاوز لدائرة الممكن تحدٍّ وخوارق، إنَّه العقل الممكَّن من

دخول دائرة المعجز؛ ومن هنا فالأنبياء والذين يلمون بالمنزّل ويؤمنون به هم أصحاب العقول الدَّارية.

ومع أنَّ الدِّراية عمليَّة عقليَّة فإنَّ من تمكَّن منها تمكَّن من طي صفحات الأميَّة إلى الأبد، ومع أنَّ الدّراية لا تُعلّم فإنَّ علومها تُعلَّم؛ فذلك النبي الأمي محمَّد –عليه الصَّلاة والسَّلام– بعد أن أعلمه الله بالمعجزات أصبح نبيًّا يعلم ما لم يعلمه غيره، ومن هنا أصبح محمّدًا نبيًّا ومعلّمًا يعلم ويعلِّم غيره ما أنبأ به إنباءً.

ومن ثمَّ فالذي لا يعلم بالشيء لن يكون له من الشيء شيئًا به يدري؛ ولهذا فلا علاقة بين الأمّيِّ وعدم معرفة القراءة والكتابة، فهذه العلاقة لا تكون إلَّا بين الجهل والتعلُّم، أو بين التيه والمعرفة، أمَّا الأميّة فليس لها علاقة إلّا بعدم الدِّراية؛ ولذلك فالنَّبيُّ الأميّ هو الذي أُنبأَ بما لا يدري حتى أصبح نبيًّا يدري، وهذه معجزة وقد وُهبت لمحمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

وعليه: إنَّ الأميّة حالة غير دائمة وهي قابلة للمحو من عقول الجميع في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، فمن يكن أميًّا يمكن أن يصبح في دائرة الممكنِ عالمًا فلا استغراب؛ وإذا كان بالعلم تستنير العقول وتطمئن الأنفس والقلوب، إذن: فما بالك باستنارة النبأ اليقين الذي نسخ أميَّة محمَّد بعد أن أمره الله بقوله: (اقرأ) فقرأ باسم الله ما لم يكن يقرأ ويعلم؟!

ومن هنا: فالإنسان الذي يعرف ليس بالضرورة أنَّه يدري، فعلى سبيل المثال: الأميون مع أنَّهم يعرفون ما يعرفونه من شئون وأمور فإنَّهم لا يدرون بقوانينها، ولا يدرون بالأسرار التي تختفي وراءها، وهكذا العلم لا يكون إلَّا في مواجهة الجهل مما يجعل المتعلّمين يعلمون ما يعلمونه ولكنَّهم مهما علموا فهم لا يبلغون علم الدّراية الذي وحده يُمكِّن من معرفة الحكمة وما تخفي مِن ورائها مِن سرٍّ.

ولذا فالنّبي محمَّد قبل الرِّسالة لا دراية له بها (أمّي)، ومِن بعدها أصبح يدري (نبيّ)؛ ومن ثمَّ فمفهوم الدّراية يدلُّ على: (الإلمام بعلم اليقين؛ حيث لا شيء يخفى، ولهذا فالأميّة قيدٌ وهي أعظم أثرًا من الجهل.

وعليه: فإنَّ علم الدّراية لا يأتي إلَّا من خارج العقل؛ ومن ثمَّ لا يمكن أن يكون من بناة أفكاره، فعلى سبيل المثال: أمر الوحي الموحى لا يأتي إلَّا من خارج العقل (من السّماء إلى الأرض)؛ ولأنَّه يأتي من خارج العقل إليه من السَّماء فلا أحد يعلم أو يعرف أو يدري شيئًا من ذلك؛ ولهذا فالكل أميٌّ بأمر السّماء، وما محمَّد إلَّا واحدٌ من الأميّين بأمرها إلى أن أعلمه الله، وأنبأه بالأمر: (كن)، فكان محمَّدٌ قارئًا بالأمر: (اقرأ) فقرأ.

ولأنَّ محمَّدًا لم يعد أميًّا بأسباب امتلاكه الدِّراية بعد أن قرأ دون سابق قراءة، فيجوز له حقّ النهي عن المنكر وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ}؛ ولذا عندما كان محمَّدٌ أميًّا لم يُعط له هذا الحقّ، أو هذا

التفويض، أو هذه الصلاحيَّات كما تسمى لدى البعض تحت مظلة لغة العصر، وإلا هل يُقبل أن يكون أمر التصرّف بأمر الطَّاعة بيد من لا يعلم الأمر ومعجزاته؟ وهل يُقبل التحليل والتحريم والنّهي ممن لا يعلم بما يأمر أو ينهى أو يُحَلِّل أو يُحرِّمُ؟

هنا أقول: بالطّبع، لا.

فمحمَّد –صلّى الله عليه وسلّم– بعد أن قرأ بأمرٍ من الله –تعالى– فهو القارئ وليس الأميّ، أي: إنَّ محمَّدًا قد كسر قيد الأميَّة؛ ولهذا لم يعد حاله كما كان قبل الرِّسالة، وعليه: الكلام أو التحدّث عن محمَّد قبل الرِّسالة كلامٌ أو حديثٌ عن أميّ، والكلام أو التحدث عن محمَّد بعد الرِّسالة –صلى الله عليه وسلم– حديث أو كلام عن رسول يعلم؛ ولذلك علينا أن نُفرِّق بين الحديثين والشّخصيّتين (شخصيّة محمَّد الأميّ، وشخصيّة محمَّد الرَّسول النبي الذي أصبح يَعلم) وإلّا هل يُقبل أن يوصف النبي الكريم بالأميّ، ويوصف الذين آمنوا وتعلموا على يديه بالعلماء والحكماء؟!!

وكيف يُقبل أن يكون محمَّدٌ هو صاحب الرِّسالة الخاتمة للنّاس كافَّة ويقبل أن يوصف بالأميّ؟

وكيف لا نكتشف التناقض في الأمرين:

الأمر الأوَّل: أمرُ محمَّد الأميّ.

الأمر الثَّاني: أمر الذين تعلموا مما علّمهم به حتى أصبحوا علماء وحكماء؟

وعليه: هل يقبل أن يكون للرّسالة مرجعيّة ورسولها أميّ؟

ولأنَّ محمَّدًا –عليه الصَّلاة والسَّلام– رسول للنّاس كافَّة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاس إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأميّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[2] أي: إنَّ محمَّدًا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لم يكن رسولًا خاصًّا بالعرب، بل هو الرَّسُول الخاتم وللكافَّة: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاس إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كافَّة لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لَا يَعْلَمُونَ}[3].

إذن: كيف يُقبل أن يكون رسول الكافَّة أميًّا والنَّاس على يديه علماء وحكماء ويعلمون؟!

أقول: رسول الكافَّة ليس بأميّ، بل هو بما أُعلِمَ عَلَّم وبشَّر وأنذر وحرَّض وحلل وحرّم وأمر ونهى، وهو قبل الرِّسالة محمَّد الأميّ، وبعدها محمَّد رسول ونبي؛ ولذا فالفرق كبير بين محمَّد الأميّ الذي لا صلاة ولا تسليم عليه في زمنها، ومحمَّد الرَّسول النبي الذي يصلّي الله وملائكته عليه،

2 الأعراف: 158.

3 سبأ: 28.

ومن بعده يصلي عليه ويسلم المؤمنون الذين أسلموا وجوههم لله ربّ العالمين.

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}[4]. الأميّون في هذه الآية الكريمة لا تعني الذين لا يقرءون ولا يكتبون، بل تدلُّ على أنَّ الأميّة هي: (في دائرة النسبيَّة)، وإلَّا هل هناك من يصدّق أنَّ العرب جميعهم كانوا لا يقرؤون ولا يكتبون وكأنّهم قوم جهالة بالمطلق؟ هذا القول لا يستقيم إلّا بعدم علمهم بالقرآن قبل نزوله على رسولهم الكريم صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا مع أنَّهم حقًّا أميّون إلّا أنَّ البعض منهم يقرؤون ويكتبون؛ ولذا فهم بالنسبة إلى الدين الجديد جميعهم أميّون، وأنَّ أوَّل من أُعلِمَ دراية هو رسولهم النبي محمَّد صلوات الله وسلامه عليه، الذي كان أميًّا قبل نزول القرآن، ولأنَّه أوَّل من أُعلم كان مكلّفًا بتلاوة القرآن عليهم وبتزكيتهم، وبتعليمهم الكتاب والحكمة بوصفهم كانوا أميّين بما أُنزل؛ ولأنَّه كذلك فكيف يحقّ لنا أن نصفه أميًّا؟

وعليه: فإنَّ الكلمة التي بها كُسِرَ وهمُ الأميّة (اقرأ) لا يمكن أن يكون صاحبها من بعدها أميًّا.

ولتوضيح الفارق في المفاهيم أقول:

4 الجمعة: 2.

الجهل: لا يعني عدم المعرفة، بل يعني أن جزءًا كبيرًا من المعرفة غائبٌ؛ فالذي يعلم بمحمَّدٍ رسولًا، ولا يعلم عن رسالته إلَّا قولًا مسموعًا يعد جاهلًا، وليس بأميٍّ؛ ذلك لأنَّ الجاهل هو من تحوطه العلوم والمعارف والأنباء ولا يسعى إلى معرفتها.

أمَّا الأميَّة فإنَّها لا وجود لشيءٍ يحوطنا ونحن لم ننتبه له، أو نتعرَّف عليه، أو ننهل منه ونتعلَّم، أي: ما نحن منه على أميَّة لم يولد بعد، ولم يكن في دوائر تفكيرنا وتوقّعاتنا، ومن ثَمَّ فنحن أميّون بكل ما لم يُخلق، ونحن نجهل أمر ما خُلق ما دمنا لم نتعرَّف عليه بعد، وبعضنا جاهلٌ بما يعلمه البعض وسيظل الجاهلُ جاهلًا حتى يعلم ما عَلِمهُ غيره.

ومن ثمَّ فالجهل لا يعني غياب المعلومة، بل يعني عدم البحث عنها والسّعي إليها، أمَّا الأميَّة فلا وجود للمعلومة على الأرض حتى نسعى إليها بحثًا واستنارة.

الاستنارةُ قيدًا:

مع أنَّ الاستنارة تفتح آفاقًا واسعة أمام المدركات العقليّة وعيًا ومعرفةً واستقامةً، فإنَّها تضع قيودًا على السُّلوكيَّات والأفعال التي كانت مِن قَبلها تُفعل وتُسلك بكل حريّة وإرادة.

ولأنَّ الأميّ تحوطه الأميَّة من كلِّ جانب فلا يرى شيئًا سواها، ومَن تحوطه الاستنارةً قيدًا فلا يرى الأيَّام والأعوام من بعدها إلَّا استقامة.

ومع أنَّ العقل الأميّ لا يُمكِنه أنْ يَرى ما يراه عقل المستنيرِ؛ فإنَّه في غيبوبة الأميَّة لا يُسأل عمَّا لا يدري كما يُسأل من يدري في صحوة واستنارة؛ ذلك لأنَّ الإنسان المستنير عقله متقصٍّ ومتفحّص للمعلومة بالمعلومة، ومن ثمَّ يستطيع أن يكتشف سرًّا كان يجهله، ثمَّ يستطيع أن يصحح ويقوّم المعلومة الخاطئة بالمعلومة الصحيحة والصّائبة.

وعليه: فإنَّ العقل المستنير قادرٌ على التبيّن والتمكُّن من المعرفة الواعية التي تجعله قادرًا على معرفة الحقيقة، التي من بعد معرفتها يتقيّد استنارة بما يجب أخذه أمرًا ونهيًا.

ومن هنا علينا أن نميّز بين العقل الأمّي الذي قيّدته الأميّة عن غير دراية، والعقل المستنير الذي قيدته المعرفة وعيًا ودراية؛ فالعقل الأوَّل تقيّده حياة الفطرة أميَّة وشهوة، والعقل الثّاني تقيّده حياة المعارف (حيطة وحذرًا).

ولأنَّ الاستنارة قيدٌ، فإنَّ المستنيرين كما يتجنَّبون ما يؤلم أنفسهم يتجنبون ما يؤلم الغير؛ وبهذا فهم يميّزون بين ما يجب الأقدام عليه أو أخذه وما يجب تجنّبه والابتعاد عنه، وهم أيضًا بقراءتهم لعلوم المستقبل المتوقّع يرسمون السّياسات والخطط، ويعملون على إنجازها مع إصرارهم على إزالة ما يعيق سبيلهم من قيود تجاه الغايات المرجوة والمأمول نيلها.

ولأنَّ الاستنارة صحوةُ بصيرةٍ فهي لا تُبلغ إلَّا من بعد أنْ يُكسر قيد الأميّة درايةً، ومع أنَّ المستنير هو من كشف قيود الأميَّة وعمل على

كسرها، فإنَّه بذات الاستنارة يُقيَّد؛ ذلك لأنَّ المستنير هو مَن بلغ مراتب المعرفة قمّة وبها تمكّن من قول: (نعم) لما يجب أن يقال له، وقول: (لا) لما ينبغي أن يقال له، وهذه لا تقال إلَّا عن مسئوليَّة؛ ولهذا فالمسئوليّة قيد على مَنْ حملها وتحمّل ما يترتّب عليها من أعباء جِسام؛ ذلك لأنَّ أقوال الإنسان المستنير وأفعاله وسلوكيَّاته يفترض أن تكون للغير مثالًا وقدوة؛ ولهذا فإنَّ أخلاق المستنير قيدٌ عليه أمام نفسه والغير.

الاستنارةُ بين قيدٍ عليكَ وقيدٍ لكَ:

مع أنَّ الاستنارةَ قيدٌ أخلاقيٌّ على المستنير، فإنَّها أيضًا قيدٌ له في ميادين البحث العلمي؛ ومن هنا يختلف مفهوم القيد (على المستنير) عن مفهوم القيد (للمستنير)، فالقيد على المستنير يستوجب خضوعه أو إخضاعه من قبل النّصوص أو من قبل الغير، أمَّا أن تكون الاستنارة قيدًا له؛ فهي الاستنارة القابلة للاستخدام من طرفه وعيًا؛ كونها استنارة معرفة ودراية.

فاتباع الباحث المستنير لخطوات البحث العلمي تتطلَّب منه التقصّي للمعلومة وفقًا لقيود قواعد البحث ومناهجه وأساليبه الموضوعيّة، وهذه مع أنَّها خطوات مقنّنة وبين يديه مَقيَّدةٌ، فإنَّ استنارته العلميَّة قد تُمكِّنه من تجاوزها بحثًا إلى بلوغ الخوارق استنارة.

وعليه: بقدر ما تكون الاستنارة قيدًا على العقل تكون هي الممكِّنة له من كسر القيد.

العقل قيدٌ:

مع أنَّ العقلَ حيويَّةٌ إدراكيَّة تُمكّن من المعرفة والتمييز الممكّن من الاختيار إرادةً، فإنَّه قيدًا ضابطًا للفكر والسُّلوك وفقًا للمعايير الأخلاقيَّة والقيميَّة وما تسنّه الأعراف والأديان والدّساتير والقوانين المنبثقة منها.

ولتلك الحيويَّة مستويات بشريَّة وإنسانيَّة؛ فهي على المستوى البشري لا تزيد عن كونها فطريَّة، أمَّا على المستوى الإنساني فتمتد إلى أن تصبح في دائرة الاكتساب أخلاقيَّة.

وعلى المستوى البشري خُلق الإنسان في أحسن تقويم، وعلى المستوى الإنساني كانت القيم عند البعض قمّة، وفي المقابل كانت عند البعض قاعًا.

وبين هذا وذاك كان الاختلاف على المستوى البشري تنوّعًا مغريًا للاختيار وفقًا للرَّأي والرّؤية والرّغبة، وفي المقابل كان الخلاف بين البعض صدامًا واقتتالًا وأفعالًا مُرعبة؛ ولهذا أصبح العقل في حيرةٍ من أمره: هل يطلق العنان لجموحه البشري، أم يمسك لجامه إنسانيّةً.

ومن هنا تصدّرت ملكة التفكير ذلك المشهد، ومع أنَّها المتصدِّرة لذلك المشهد العقلي حيويّةً، فإنَّها تترك للنفس ما في غاياتها؛ تقديرًا للرّغبة والذّوق، فتجعلها بين خيارات متعدّدة لتختار ما تشاء، ووفقًا لاختياراتها تتحمّل المسئوليَّة وما يترتّب عليها من أعباء جسام (ثوابًا وعقابًا).

ومع أنَّ العقل ملكة التفكير للنّفسِ، فإنَّه لا يلزمها بما لا تشتهي، أو ما لا تحب ولا ترغب؛ فالعقل بلا إكراه مصدر الخيارات سالبها وموجبها، والنّفس بين هذا وذاك تختار؛ ومن هنا فاختيارات النَّفس ورغباتها تتنوّع، وصفاتها تمتدُّ لينة وشدّةً.

ولأنَّ النَّفس مليئة بالأمزجة والشَّهوات، فإنَّ أنا النّفس في كثير من الأحيان يتحفّز ظهورًا على حساب الغير؛ ومن هنا في ساعة ولادة أقوال الإكراه وأفعاله يتواجه الإكراه والقمعِ مع الرّفض والثورة.

ومع أنَّ النَّفس هي التي يتمّ قيدها، فإنَّها ذات أثرٍ على العقل، فهي عندما تقيّد إرادتها تلتجئ إلى العقل ليجدَ لها مخرجًا؛ فإنْ خَلُصَ معها أعطاها خيارات متعدّدة تمكّنها من فكّ القيد أو كسره، وإن لم يَخلُص معها فقد يزيدُها على قيدها قيدًا.

ومع أنَّ رغبات النَّفس وشهواتها كثيرة، فإنَّ خَلقها البشريّ فطرة لا يمنحها رغبةً في القيودِ، وفي المقابل أنَّ خُلقها الإنسانيّ لا يعطها حريَّةً إلَّا والقيود خيارات من خياراتها.

ولذا فإنِ اطمأنت النّفس لشيء أخذت به، وإنْ لم تطمئن إليه اجتنبته وعنه ابتعدت؛ ومع ذلك لن تأخذ به أو تبتعد عنه إلَّا وخيارات العقل أمامها؛ ولهذا فإن أخذت بما أجازه العقل لها كانت اختياراتها صائبة، وفي المقابل إن اختارت ما لم يُقرّه العقل لها فقد هربت من قيوده إرادة، مع

العلم أنَّ إرادتها هذه قد تكون مخالفة لتلك القيود (القيم، والأعراف، والأديان، أو ما يستمدّ منها بغاية ضبط العلاقات والسُّلوك الإنساني).

وعليه: بما أنَّ النَّفس الإنسانيّة بين حريَّة بلا ضوابط إنسانيَّة وضوابط العقل الإنساني وقيوده، فإنَّها لا تكون إرادة إلَّا بين قيدٍ وانفلاتٍ.

ولأنَّ القيد ضدّ الانفلات، إذن: ليس دائمًا القيد بلا محاسن، أي: إذا لم تقيّد نفسك إنسانيًّا (قيمًا ودينًا وعرفًا) فلا تستغرب إن تعرّضت لقيدٍ وأنت مُكرهًا، أي: لا تستغرب إنْ زُجَّ بك في السّجون مذنبًا في حقّ نفسك التي لم تحترم وتقدّر ما يحترمه ويقدّره العقل الإنساني خُلقًا.

ومن هنا أقول: لو لم تكن الفكرة قيدًا ما كانت الأيدي صانعة لحلقاتها؛ فالإنسان عندما لا يستطيع ضبط نفسه عن إرادة يجد نفسه يفكّر والحيرة تملؤه حتى يجد قيدًا لضبطه، وبعد أن يُقيّد بما أوجده من قيد، يبدأ في البحث عن كيفيّة فكّه وبكلّ ما يتيسّر له من حيلٍ.

ولذا؛ فمن يريد أن يكون إنسانًا في أحسن تقويم فعليه أن يتمسّك بعقله الذي به يتميّز عن غيره، وإذا أراد الحرّيّة فعليه أن يقبل التنازل عن عقله؛ كي يستطيع في دائرة الممكن أن يفعل ما يشاء متى ما يريد، ولكنَّه نهاية سيعرف أنَّ للحرّية ثمنًا، وهكذا إذا أراد الاثنين معًا؛ فعليه أن يقبل بحياة المساجين الأحرار.

فنحن بني آدم لولا العقل وما نفكّر فيه ما عرفنا المرغوب والممنوع، ولا الوهم والموهوم به، ولا المحلّل والمحرّم، ولولا العقل والفكرة ما استعملنا كلمتي: (قفْ وسرْ)، ولا كلمتي: (لا، ونعم)، ومن ثمّ فإنْ لم يقيّد الإنسان نفسه أخلاقًا إنسانيَّة، سيجد نفسه مقيّدًا من قِبل الغير بفكرة القيد التي أنتجها عقله.

ومع أنَّ السّجن هو السّجن قيد؛ فإنَّ الإنسان إن فكَّر في نفسه عقلًا وقيدًا؛ أصبح على الأقل يمتلك الإرادة، ولكن إن وُضع القيد في يديه كرهًا؛ فهل يُمكن له أن يكون على شيءٍ من الإرادةِ؟

ومن ثمّ؛ فإذا سلّمنا أنَّ العقل هو الذي يقيِّد نفسه، ألا نسلّم بأنّه قادر على فكّ قيده عن نفسه ارتقاءً؟

لا شكّ أنّه سيكون قادرًا إذا قبل التوقّف عند حدوده وكسر الوهم، ولا يتمدّد على حساب حدود الغير وهمًا؛ ولكن إن تمدّد وهمًا؛ فسيجد نفسه سجين تلك الفكرة التي أنتجها قيدًا.

ولذا فبالثَّقافة العادلة تفكّ القيود، وبها توضع قيودًا: (تُفك من قيد الجهل المعرفي وتوضع به)؛ ومن ثمَّ فالمارقون الذين تمكّنوا من الاستيلاء على مقاليد السُّلطة في بلدانهم حكموا النَّاس قيدًا، كما كان حال فرعون الذي قال كما جاء في القرآن الكريم: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ}[5]، فهؤلاء لا يرون شيئًا يعلو على رؤاهم، ومن يخالف رؤاهم

[5] غافر 29.

ضلّ، ومن يضلّ عن رؤاهم المخالفة للحقّ تواجهه المكائد، والدّسائس وصولًا إلى إقصائه بعد أن يلبّس بكمٍّ من التّهم التي تلفّق له قيدًا؛ ليُدانَ بتلك القوانين التي سنّت من أجل الطّاعة للظلمة، ولكن لأنَّ هذه الأفعال مضادة لنواميس الحياة وسُننها الطبيعيَّة، ترفضها الإرادة الإنسانيَّة كلّما كسرت القيد الذي يكبّلها ويحول بينها وبين ممارسة الحريّة؛ ولذا عندما يبلغ الإنسان الصّحوة لا بدَّ له أن يرفض بقوّة الإرادة كلّ أسباب القيود وعللها، كما يرفض مَنْ قيّد النَّاس بها، ومَن أمر بوضع القيد في الأيدي، والطوق في الأعناق.

فتلك هي النّفس التي تطمئن حينًا وتأمر بالسّوءِ حينًا، أي: إنَّها إذا رشدت مع العقل اطمأنت، وإذا وهمت مع نفسها ساءت؛ ولذا وجب كسر الوهم بقيد العقل رُشدًا.

ومع أنَّ القيد بمفاهيم العموم سالبًا، فإنَّه بالمفاهيم الموضوعيَّة ملئ بالموجبات وخير مثال: تلك المعجزات التي أنزلت على الأنبياء بغاية كسر قيد الوهم الذي كبّل عقول النَّاس وجعلهم يتخذون من دون الله آلهةً وأربابًا.

ومِن أعظم الأوامر التي أنزلت قيدًا على النبي محمّد -عليه الصَّلاة والسَّلام-هي فعل الأمر (قُل)، وهو فعل الأمر الملزم الأخذ به والتقيُّد؛ حيث لا اجتهاد من بعد (قُل)؛ ومن ثمّ فإنَّ (قُل) قد قنَّنت كلّ ما قِيل من بعدها، ولم تتركه فضفاضًا للتناقض وسوء التفسير وأوهام البشر؛ فهي

من أهم الكلمات التي نقلت المبلّغ به إلى المبلّغ إليه دون أن تترك له رأيًا فيما أمرت به وقيَّدته.

ومن هنا فإنَّ الإرادة أمام الأمر المطلق أو الأمر كرهًا لن تُعد مطلوقة العنان، فهي بقدر ما يقيّدها الدين فإنَّ الدِّين يفتح أمامها آفاقًا واسعة، وكذلك بقدر ما تقيّدها القيم تسمح لها بالامتداد، وهكذا الدّساتير والقوانين تقيد حركة امتداها، وقد تقوّض المقدِمينَ عليها وتقودهم قيدًا إلى داخل الجدران؛ ومع ذلك لا تجعل الخوف قيدًا عليك، بل اجعله قيدًا بين يديك تقوض به أيدي من يريد أن يقوِّض إرادتك ويشكل عليك خطرًا.

ولهذا مع أنَّ الدساتير الوطنيَّة لا تكون إلَّا باختيارات الشُّعوب إرادة، فإنَّها لا تزيد عن كونها قيدًا ديمقراطيًّا؛ ومن هنا فالإنسان إذا أراد ارتقاء؛ فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الغير؛ حتى يتمكّن من إزاحة النقاط المظلمة فيها، وأن يتنزّه في نفسه حتى يستبصر من هو؟ وما له؟ وما عليه؟ ثمّ يعمل على التصحيح، ويتحدّى عقله تفكيرًا في نفسه؛ حتى يدرك أسرارها وخفاياها؛ ومن ثمّ يعرف أنَّ قوّة البصيرة بقوّة التفكير فيها، وهي لا تضعف إلّا إذا دخلتها الغفلة وسيّرتها الشّهوة وكبَّلتها القيود؛ ولهذا فالفكر ارتقاء يُمكّن الآخذين به من التفكير فيما يفكّرون فيه، حتى يفكّروا فيما هو أحسن منه.

والفكرة سواء أكانت استنارة أم قيدًا لا تكون إلّا من إعمال العقل، الذي بإمكانه أن يستمدّ الشيء المجرّد من الشّيء المشاهد أو الملاحظ،

كما هو استمداد القوانين من المعطيات الكونيَّة والطّبيعيَّة، ولأنَّ الفكرة مولود العقل؛ فهي متى ما وُلدت فيه وَلَّدَتْ منه رؤية لشيء قابل للتحقّق بين أيدي النّاس، وهي لا تكون كذلك إلّا بتلاقح الآراء (سالبها وموجبها)، وكلّما كثرت المستفزّات الخَلقيّة والخُلقيّة أثارت العقل انتباهًا لما يجب؛ فتدفعه حيويّة الحيرة تجاه التخلّص من العَتَمة التي تَحول بين الغرض وتحقيقه.

ومع أنَّ الفكرة تخلّص من الحيرة، فإنَّها لا تكون ارتقاء إلّا من بعدها، فالحيرة بالنّسبة إلى الفكرة تعدّ مخاض ولادة، وولادة الفكرة من دون حيرة تسبقها: هي ولادة قسريَّة؛ فلا يمكن أن يتطابق الزّمن الافتراضي لولادتها مع زمن قسريّتها، فتولد مشوّهة؛ ومن ثمَّ ستكون الحلول أو المعالجات أو الإصلاحات المترتّبة عليها منقوصة، أو منحرفة تجاه المخالف لتحقيق الأغراض ارتقاء.

ومع أنَّ هذا الأمر يعدُّ سالبًا بالنّسبة إلى الفكرة ارتقاءً، فإنَّه الأمر المحيّر والمستفزّ لعقول الآخرين إيجابًا، ممّا يحفّزهم ويدفعهم إلى الالتفات تجاه المحيّر، حتى تلد الحيرة فكرة، تُخرج من التأزّم وتكسر القيد.

ومع أنَّ زمن الحيرة الفكرية مُقلق لمن ألمت به وألمّ بها، فإنَّه المخاض الذي ينذر بولادة ما يسرّ العقل والنّفس؛ ولذلك فالبحوث العلميَّة ارتقاءً تسبقها الحيرة المؤدّية إلى ولادة الأغراض المحفّزةِ على حيرة جديدة، من

بعدها حيرات تُمكّن من تحقيق غايات هي الأخرى تمكّن من كسر القيد؛ ومن ثمَّ إحداث النُّقلة ونيل المأمول.

ولهذا فلا داعي للقلق من الحيرة؛ فقلق الحيرة يُمكّن من الإلمام بالمحيّر حتى يقتنص له حلًّا، ومن لا حيرة تستفزّه؛ فعليه أن يفكّر في الشّيء استحالةً أو إعجازًا أو ممكنًا؛ حتى يقتنص حيرة بها يقتنص فكرة، تلد له حلًّا يمكّنه من تغيير أحواله رفعة، أو أن يضيف له جديدًا، أو على الأقل يتمكّن مِن كسر قيدٍ من بعده ينهض.

وعليه فالعقل بقدر ما هو الطّليق (خَلقًا فطريًّا)، فإنَّه المقيد خُلقًا مكتسبة، ففي خَلقه الفطري يجسّد الحياة الأميَّة (حياة الفطرة البشريّة)، وفي خُلقه المكتسبة يجسِّد حياته الإنسانيَّة قيدًا (إنَّه العقلُ الطليقُ قيدًا).

والعقل مع أنَّه الطّليق اختيارًا فهو المقيّد تسييرًا؛ أي: مع أنَّه المخيّر في مشيئة خَلقه، فإنَّه المسيّر في مشيئة خَالقه.

ويعدّ العقل قيدٍ؛ لأنَّ كل القيود التي تلمّ به وتطوِّق حريّته لا تكون إلَّا وليدة أفكاره، أمَّا الأديان مع أنَّها جاءت مخففة لآلامه ومواجعه من تلك القيود التي طوّق بها نفسه، فإنَّها لا تخلو من قيودٍ في دوائر التحليل والتحريم والثواب والعقاب.

وأوَّل القيود التي فكّر العقل البشري فيها أنْ يتّخذ له معبودًا ويتقرَّب إليه زلفى، معبودًا يُصنع من طينة ليست من صنع يدي الصَّانع، أي:

معبودٌ لا شأن له حتى نستطيع أن نقول عنه: إنَّه أفضل شأنًا من شأن صانعه إلهًا.

ومن هنا نقول: إنَّ الخَالِقَ الذي يجب أن يعبد لا يكون إلَّا أعظم من المخلوقِ؛ ولأنَّ الخالق أعظم من المخلوق فيكف لخالقِ مصنوعٍ أن يتخذ له إلهًا من صنع يديه ولم يتخذ له معبودًا كان من وراء خَلقه ووراء يداه اللتان صَنعَ بها معبودًا من دون خالقه؟

إذن: العقل وفقًا لامتلاكه حيّز التخيير وفسحته قد حاد عن حياة الفطرة (الحياة الأميَّة) وذلك بتعظيمه من هو أقل شأنًا منه وفقًا لقاعدة: كل مخلوق من ورائه خالق، والمخلوق دائمًا أقل شأنًا من شأنِ خالقه.

ولأنَّ العقل قيدٌ على ممارسة الحريَّة فقد ابتدع لنفسه صفة لا علاقة لها بالحياة الأميّة، إنَّها صفة (الدكتاتور) التي بها قاد غيره، حتى تمكَّن غيره من الانقلاب عليه بأسلوبها قيدًا دكتاتوريًّا.

ومن هناك فالعقل الدكتاتور إذا حكم الشَّعب يُصبح هو المشرّع، وإذا غاب وكأنَّ القانون غاب؛ والشّعوب التي ركنت سنينًا تحت عقل الدكتاتور قيدًا لا ترى نظامًا ضابطًا للعلاقات بينها إلَّا ذلك النظام الذي ربط العلاقة بين الخوف والجبن حتى جعلهما وكأنَّهما التوأم؛ مع العلم أنَّ الخوف موجبٌ كما هو حال الخوف من الله، ومن الظلم، والذنوب، والعيوب، أمَّا الجُبن فسلبي؛ ذلك لأنَّه لا يكون في الميادين واقفًا إلَّا شاهد زورٍ.

ولذا أصبحت الدكتاتوريَّة لدى البعض مطلبًا يُقيِّد عقلًا لا ينضبط إلَّا بها، فالعقل الذي ركن السّنين قهرًا تحت وطأتها فلا يرى قيدًا ضابطًا للعلاقات إلَّا قيدها.

ومع أنَّ العقل الدكتاتور قادرٌ على توليد الحيويَّة كرها، فإنَّه المميت لها عند المستنيرين والمتطلّعين إلى بلوغ الأمل ونيل المأمول حريّة وكرامة وإرادة.

العقلُ قيدًا بين قاعدةٍ واستثناءٍ:

مع أنَّ للعقل ملكات تُمكِّن من بلوغ الخوارق فإنَّ حيرة البحث العلمي تقيده بين قاعدةٍ واستثناءٍ وكأنَّه لا يستطيع التمييز؛ ذلك لأنَّ الحيرة قيد وستظل قيدًا، حتى يستبصر العقل سبيله بفرضيّة أو تساؤل يكسر بهما قيد الجمود والسُّكون.

ومع أنَّ كلّ ما يُعيق عقل الإنسان يعدّ قيدًا، فإنَّ بعض القيود في دائرة الإيجابيَّة لا تُكسّر، أي: مع أنَّ البعض لا يعدّ القيد إلَّا استثناءً فإنَّ البعض لا يفرق بينه والقواعد، أي: مع أنَّ القاعدة لا ترى الإنسان إلَّا حرًّا، فإنَّ الاستثناء لا يراه بلا ضوابط؛ ولهذا مع أنَّ كسر القيد يدعم القاعدة فإنَّه لا إمكانيَّة له بلا الاستثناء.

وبناء على أنَّ قيد العقل بين قاعدة واستثناء نجد بعض الشّعوب حُكّامها مفاتيح بين أيديها، وبعض الشّعوب حُكّامها أقفال.

ومع ذلك أقول: لا مخلوق بلا قيود، ولا قيود على الخَالق، أي: بما أنَّك مخلوقٌ فأنت مقيّدٌ (مسيّرٌ) بقوانين الخالق؛ ومن ثمَّ فأنت في دائرة الممكن مخيّرٌ إن أردت كسر قيودها وبأيَّة علّة.

ومع أنَّ في العلّة معيبةً فإنَّ بعض النّاس بعلّتهم في دائرة الممكن لا يقبلون بكسر علّة حكّامهم، وفي المقابل يقبلون بكسر قيود الخالق علّة.

ولأنَّ لكلِّ قاعدة استثناء إذن: فالمنطق يستوجب الالتفات إلى كلِّ استثناء وكأنَّه قاعدة، وفي هذا المفهوم يحضرني السّؤال الآتي:

هل الأبوة والأمومة قيدان، أم أنَّهما منبعا ولادة الإرادة الحرّة؟

قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[6].

جاء مفهوم قوله تعالى: (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا) بمعنى: لا حرّية لك في أن تقول لوالديك: (أفٍّ)، وهذا يعني أنَّها القيد، وفوق ذلك فهي تعني: ليس لك إلّا القبول، وليس القبول فقط، بل يجب أن تقول لهما قولًا كريمًا (وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) بمعني: لا مجال للرّفض إلّا القبول، وفوق التقبّل أن تقول لهما: (قَوْلًا كَرِيمًا)، وفوق القول الكريم أن تخفض

[6] الإسراء: 23، 24.

لهما جناح الذّل من الرّحمة: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ)، وفوق ذلك أيضًا أن تسأل الله أن يرحمهما: (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا).

إذن: تعد (لا) قيدًا يستوجب الاحترام والتقدير بعد الأخذ بما نهت عنه، ومع ذلك لا يعد القبول مطلقًا، وفقًا لكلّ قاعدة استثناء، والاستثناء جاء في قوله: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا}[7].

ولأنّ (لا) ناهية وقاطعة؛ فهي ناهية لما تنهى عنه استثناءً، وبمراجعة النهي السّابق في الآية السابقة نلحظ أنَّها تنهى عن معصية الوالدين، وتوجب طاعتهما، وفي هذه الآية نلحظ أنَّها تنهى عن طاعتهما في معصية أمر الله النافذ: (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا)، ومع أنَّه لا يجب طاعتهما في أمر المعصية، فإنَّه يجب مصاحبتهما في الدّنيا معروفًا، حتى وإن ارتكبا فعل المعصية: (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا).

ومن ثمّ فالتساؤل: هل (لا) تعد قيدًا، أم أنَّها مجرد أداة ناهية وغير ملزمة؟

أقول:

[7] لقمان: 15.

إنّ (لا) الملزمة غير ملزمة، أي: إنّ (لا) التي يكون أمر نهيها ملزمًا، فأمر نهيها لا يكون إلّا استثناءً، بمعنى: لو لاحظنا أمر الأبوة والأمومة للاحظنا أنَّ القاعدة هي: طاعة الوالدين، والاستثناء هو عدم طاعتهما، ولأنَّ لكلّ قاعدة ما شذ عنها، فمن لا يطع والديه يعدّ قد خرج عن القواعد القيميَّة المقدّرة، ومن ثم يجب أن ينهى عن الخروج عنها، إلّا استثناء بعلل المخالفات المنحرف أصحابها.

ولهذا؛ فدائمًا (لا) النّاهية لا تأتي إلّا استثناءً، ولأنَّها لا تكون إلّا استثناءً فهي قيد لا يجوز إلّا استثناءً. ومن هنا، تعدّ (لا) قيدًا لا يكون إلّا في وجوبه (وفقًا للقاعدة)، وفي المقابل، من يستخدم (لا) في غير وجوبها، ينبغي أن تُكسّر؛ حتى لا تكون عائقًا بين الإنسان وما يمكّنه من بلوغ الآمال التي تحقّق له الرّفعة والمكانة.

وبمقارنة ما لا يقارن أقول: نجد بعض النَّاس لا يأخذون بأوامر الله ولا ينتهون بنواهيه، وفي المقابل يأخذون بأوامر حكَّامهم ولا ينتهون إلَّا بها.

ولأنَّ الإنسان كائنٌ مخلوقٌ فهو لا يكون إلَّا مقيدًا؛ كونه لم يُخلق هكذا عبثًا: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}[8]، أي: إنَّه المقيّد بداية ونهاية؛ ذلك لأنَّ بداية خلقه بأمر الخالق ونهاية وجوده بأمر الخالق.

[8] المؤمنون: 115.

ولأنَّه المخلوق ولغاية معلومة؛ إذن: لا بدَّ وأن يكون مسائلًا ومحاسبًا على مدى تقديره والتزامه بقيودها (قاعدة واستثناءً)؛ ومن هنا أقول: إنَّ موازين العدالة دائمًا مؤسَّسة على كفّتي القاعدة والاستثناء: {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[9].

نعم، إنَّها الآية القيد (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)، ومع أنَّها الآية القيد، فإنَّها قد تضمّنت مفهوم الاختيار الحرّ (فمن أراد الإيمان فعليه به، ومن اختار الكفر فعليه به) ولكلٍّ موازينه قاعدة واستثناءً.

أمَّا التساؤل: هل الدّين قيد، أم إنَّه منبع قيم ممارسة الحريَّة؟

أقول:

بما أنَّ الدّين جاء لضبط العلاقات والسُّلوكيَّات، إذن جاء مقيَّدًا؛ مصداقًا لقوله تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ}[10]، فكلمة (قل) جاءت أمرًا، بمعنى: قل ولا رأى لك فيما أمرناك بقوله، أي: أنت يا رسول الله مقيّدًا بأمرنا فلا تتجاوزه قيد أنملة، أي: قل لهم إنَّك مأمور بالقول المفروض عليك وعليهم فرضًا؛ فهو المفروض عليك قوله إليهم، والمفروض عليهم أخذه منك.

ومع أنَّ كلمة: (قل) في هذه الآية الكريمة قيَّدت الرّسول أمرًا، فإنَّها تضمَّنت له استثناء فيما يأتي به وينهى عنه، ومع أنَّ كلمة (قل) جاءت

---

[9] الكهف: 29.

[10] آل عمران: 32.

فعل أمرٍ مقيّدًا، فإنَّ فعل القيد لا يكون إلَّا في كل أمرٍ، ومع ذلك ليس كلّ أمرٍ يطاع.

ولذا فمن يقول لك: (اخرج)، أو (اجلس)، أو (قف)، أو (انتهي) فقد قيّدك بما يجول في عقله من قيودٍ بها يمتلك قرار الأمر وفعله، ومع ذلك فتلك القيود قد تكون عن عدلٍ وحقٍّ، وقد تكون بين مظلمة وظلمٍ؛ ولأنَّ الأمر يحتمل المتناقضات فهو لا يكون إلَّا بين رفضٍ وقبول، أو بين قيدٍ وكسرِهِ.

والسؤالُ: هل القانون قيدٌ أم أنَّه الضَّامنُ للحريَّات؟

أقول:

فلسفة القانون تمنح الإنسان فسحة التمدّد بحرّية حتى حدود الآخرين بلا تجاوز، أي: إنَّ التمدّد هو المشاعيَّة، وفي المقابل الانكماش أو التجاوز هو الاستثناء، بمعنى: لا ينبغي لك أن تتمدّد إلّا في مجالك الواسع، ولا ينبغي لك أن تتمدَّد على حساب تمدّد الغير؛ والهدف من ذلك هو: وجوب التمدّد وهذه قاعدة، أمّا الانكفاء والانكماش فهو الاستثناء بعينه.

ومع أنَّ المجتمع البشري متضاعف الأعداد، ومتنوّع الرّغبات، وحاجاته متطوّرة، فإنَّ إشباع حاجاته يظل بين كثرة وندرة وانعدام، وهو بين هذا وذاك ليس له إلَّا الالتفات إلى نفسه وتنظيم علاقاته، وضبط أعماله وأفعاله وسلوكيّاته، وتنظيم حياته؛ ولهذا دائمًا في حاجة إلى سنّ

القوانين الضّابطة، ولكن أيّة قوانين؟ هل هي فاتحة الآفاق لممارسة الحريَّة، أم أنَّها المقيّدة لمن يأمل ذلك؟

القوانين منها ما هو الطّبيعي خَلقًا وفطرةً، ومنها ما هو وضعي من قِبل من هم في حاجة إليه قيدًا؛ ومن هنا جاءت القوانين الطبيعيَّة متلائمة مع طبيعة المخلوقات كونها خالقة التوازن والاعتدال، أمّا القوانين الوضعية فهي بين توافق عن إرادة وتكيف لا يكون إلّا بقبول تقديم التنازلات.

ولذلك ووفقًا للقانون الطبيعي فإنَّ كلمة (قف) تعني: الاعتراف بوجودك وتقديرك واعتبارك، ولكن إن لم تقف عند حدّك الذي هو حقّ لك فستواجهك الصّدمة التي قد لا تكون متوقّعة من قِبلك، وهنا تكمن علّة التمدّد على حساب تمدّد الآخرين، فكلمة (قف) تدلّ على الإنذار ليس إلّا، ممّا يجعل الوقوف هناك عند نقطتها بلا مظلمة.

ومن خلال معرفتنا العامّة يقال: إنَّ الإنسان خطّاء، ولكن بالمعرفة العلميَّة من الذي سيخطئ؟ هل هو الإنسان العاقل، أم غير العاقل؟

أقول:

العاقل هو المعرّض للأخطاء، أمّا غير العاقل فخطؤه أمر طبيعي. وبما أنَّ العاقل هو الذي يخطئ، إذن: الذي يفكّر قد لا يخطئ، بمعنى: لو فكّر العاقل في النتائج المترتّبة على الموضوع الذي يفكّر فيه، قد لا يخطئ، أمَّا غير العاقل فهو (الحرّ) الذي لا يعرف الخطأ، وحتى إذا اتهم به نال البراءة

من رؤوس العدالة؛ ولذلك فإنَّ غير العاقل متى ما تمكّن من عقله معرفة خسر حريّته التَّامَّة.

ومن ثمّ متى ما انحرف العاقل عن قيد عقله فَقَدَ مفاتيح السَّيطرة، والتي بفقدانها تجعل الغير يلتفت إليه منحرفًا مطارد؛ ولذا فمن لا يقيِّد نفسه في دائرة المتوقَّع إرادة سيجد نفسه مقيّدًا في دائرة غير المتوقَّع كرهًا؛ ومن هنا فنحن الذين خلقنا بعقل، ونحن الذين سجنّا به.

إذن: فالسّجن ليس الجدران والقضبان، بل العقل الذي يفكّر؛ ولهذا كلّ من لا يفكّر حرّ بطبعه.

والسؤال:

هل العقل قيد (سجن) في حدّ ذاته أم أنّ القيود خارجة عنه؟

إذا أجبنا بأنَّ القيود خارجة عنه قد نسأل: لو كان الإنسان غير عاقل؛ فهل يمكن أن يفكّر في وضع قيود عليه؟ فإذا كانت الإجابة بلا، إذن الإنسان العاقل هو الذي قيّد نفسه، وهو الذي نقل لنا ما في ذهنه من موانع إلى صور وأشكال مادّية سُميت (السّجون) المحاطة بالجدران والقضبان الحديدية والحراس المزودين بالهراوات والأسلحة الحديثة.

ولأنّ الإنسان العاقل قد يتهرّب من ضميره كضابط عام وضع لنفسه قانونًا لضبطه، وشرطيًّا يقبض عليه متى ما خالف ذلك، وبعد تنفيذ القانون عليه، أحسّ الإنسان الذي أوجد القانون أنَّه قد وضع على نفسه ضميرًا

ورقيبًا خارجًا عنه وقيدًا عليه، فبدأ يفكّر في كيفيَّة خدعه والتهرّب منه، ممّا جعل العلاقة بين الشّرطة والمواطن الذي تنازل عن ضميره علاقة عدم ثقة ومطاردة؛ ولهذا لم يؤت الإنسان من العلم إلّا قليلا، ولو أُوتى علمًا كثيرا لعرف أنَّ التنازل عن الضّمير هو تنازل عن العقل والحريَّة؛ ولذلك لم يتطوّر إلّا بالقليل؛ فالإنسان الذي ولد كغيره من الكائنات الأخرى يصرخ متى يشاء ويصمت متى يشاء، ولد حرًّا.

ومع أنَّه ولد حرًّا، فإنَّه في زمن الطفولة لا يستشعر الحريَّة دلالة ومعنى؛ حيث عدم نضج العقل الممكّن من معرفة الحريَّة وكيفية ممارستها قانونًا طبيعيًّا أو وضعيًّا؛ ولأنّ الحياة مؤسّسة على القانون فلا يمكن أن يكون القانون قيدًا إلّا إذا كان استثناءً.

وعليه: فالتساؤلات التي تحمل في مضمونها قيدًا لا تكون قيودًا إلّا في حالات الاستثناء، ومن هنا فلا علّة في القوانين الطبيعية، بل العلّة فيمن لا تكون اختياراته وفقًا للقواعد الطبيعية التي تأسّست عليها طبيعة الخلائق؛ وهذه النتيجة تحتوي كلّ التساؤلات الآتية:

-هل الدّين قيد على الحريَّة، أم داعم لها؟

-هل القانون قيد على حرّية العقل أم لا؟

-هل الأمومة والأبوة والمجتمع قيود على حرّية العقل أم لا؟

-هل كلمة (لا) قيد على الحريَّة أم لا؟

-هل السّجون قيد من أجل الحريَّة أم قيد عليها؟

-هل الحكومة قيد على المحكومين أم لا؟

-هل يمكن أن تتحقّق الحريَّة إذا اعتبرنا هذه قيودًا؟

وبناء على هذه الأسئلة، أتساءل:

-متى ستتحرّر عقول النَّاس من التفكير فيما يُقلق وينتج ألمًا؟

لا إجابة إلّا بالعقل الذي يفكّر ويتذكّر ويميّز بين الحقّ والباطل الذي لولاه ما عرفنا المرغوب والممنوع، ولولاه ما استعملنا كلمتي: (قف، وسر)، ولا كلمتي: (لا، ونعم) فهذه الكلمات هي التي تنتج قولنا: (نعم) لما نريد، (ولا) لما لا نريد.

وعليه: ينبغي للإنسان أن يكون في عقله لكي يكون حرًّا، وإذا خرج منه سيوضع فيه من قبل الآخرين بالقوَّة، ومن ثمَّ فعليه أن يفكّر، ولكن إذا كان العقل قيدًا فهل القيد سيصنع التطوّر؟

ومع أنَّ من السّجون ما هو انفرادي وما هو جماعي وما هو اجتماعي؛ فإنَّ الدّول التي تهدف إلى التقدّم لا تسجن المجتمع، بل تسجن الأفراد والجماعات الذين يحاولون إعاقة حركة المجتمع من التطوّر، أمّا في الدّول المتخلّفة فالمجتمع بكامله يسجن تحت مظلة الأوامر والنواهي التي تعيق حركة التطوّر، ممّا يجعل دور المدرَسة ليست مدرسة، ودور المدرس

ليس بالمدرس، ودور الواعظ ليس بواعظ، وخطيب الجمعة ليس بالخطيب، وشيخ القبيلة ليس بشيخ، ورئيس الحكومة ليس بالرئيس.

ومن هنا، فالعقل الذي يحقّق التطوّر هو العقل العام، والعقل العام هو عقل المنافع الفرديَّة والجماعيَّة والمجتمعيَّة، أمَّا العقل الذي لا يفكّر في محيطه؛ فهو في دائرة الاستثناء؛ ولهذا لا يكسر قيدًا ولا يحقّق تطوّرًا.

وإذا عُدنا مرّة ثانية إلى الإجابة عن السُّؤال السّابق: كيف يكون العقل سجنًا ويحقّق التطوّر؟

أقول:

إذا سلمنا أنَّ العقل هو الذي قيَّد نفسه، ألا نسلّم بأنَّه قادر على فك قيده؟ وفي كلّ الأحوال إذا كانت الإجابة بنعم، هل يمكن أن يعيش الإنسان الحريَّة ويمارسها استنارةً دون أن يرفض القيد وأساليب التقييد كرهًا؟

ومع أنَّ للإنسان فسحة الامتداد بداية ونهاية، فإنَّه من الصَّعب عليه أن يتوقّف عند حدود بداياته ونهاياته؛ ولهذا يعرّض نفسه للقيود سجنًا، وهذا الأمر يؤكّد لنا بأنَّ العقل قيدٌ؛ ومن ثمَّ علينا احترام العقل قيدًا؛ لكيلا نسجن، وعلينا أيضًا أن نعمل ما في وسعنا بغاية تكسير القيود المكبّلة لممارسة الحريَّة.

والمعادلة التي قد تحتاج إلى ضبط وإلّا سيختل التنظيم الاجتماعي هي أنَّ الشّعوب النَّامية في زمن ما قبل العولمة المفترضة كانت غير قادرة على السّيطرة على الحاكم، ومن ثمَّ رحّبت شعوبها بتلك التنظيرات المفترضة لكسر القيد بالقيد.

أمَّا في الزَّمن الافتراضي لازدهار العولمة فالمعضلة ستكون كيف يمكن للحاكم أن يضبط الشّعب من الانفلات بعد أن تفك قيوده التي من الصّعب أن يقبل بالعودة إليها؛ ولذا قد تتدخل قوَّة خارجية من جديد تحت مبررات؛ من أجل ضبط النظام واستقرار الأمن.

إذن: إذا أريد للعولمة النجاح فينبغي لها أن تكون مؤسّسة على كفتي اعتدال الميزان؛ الحريَّة الشّخصيَّة وفقًا للقيم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة في مقابل حرِّيَّة السُّوق؛ وإذا لم يؤخذ ذلك في الاعتبار، فإنَّ نظام السّوق سيكون قيدًا بالضّرورة؛ ولذا فإنْ لم يحسم هذا الأمر سيكون الصّدام بين من يحاول إملاء شروطه ومن يواجهه رافضًا.

العقلُ إدارة قيدٍ:

العقل إدارة عامَّة يدير الحواس كما يدير المدركات، ويدير المجرّد والمحسوس والمشاهد والملاحظ، ويتدبَّر ويتذكَّر ويفكّر، ومع أنَّ العقل مركز الإدارة فإنَّه لا يتولى تنفيذ كلّ شيء، بل يترك التنفيذ لكلٍّ وفق اختصاصه مما يجعل الكلّ مراكز لا تدار إلّا به قيدًا؛ ولهذا فبالنسبة إلى مشي القدمين على سبيل المثال: فإنْ لم يُعطِ العقل حريّة الحركة للقدمين فإنَّ الخطوات

لن تتبادل بمرونة، وإن حاول أحدٌ مبادلتها فسيكون صاحبهما من المتعثرين؛ ولذا لن تخطو القدمان بصاحبهما خطوات ثابتة إلَّا بقرار واضح من العقل المقيّد لأداء وظائف محدّدة.

إذن: الخطى عندما تطوي المسافات بقرارٍ من الإدارة العامّة (العقل) تصبح علاقة التطابق تامَّة بين خطى القدمين، ورؤية العقل.

أمَّا إذا أُجبرت القدمان من الغير على قطع المسافات، فلا شك أنَّها ستتعثَّر عندما يحاول الآخر أن يجرَّها أو يجبرها بما لا يصدره لها العقل من قرارات واضحة ومحددة وعن إرادة مقيّدة؛ لذا عندما يكون قرار الإدارة العليا وفقًا لِما يجب إرادة؛ تصبح الخطوات متهيّئة ومستعدّة ومتأهّبة لقطع المسافات دون تردّد، ولكنّ المدير العام لا يدير شيئًا باستقلال عن غيره إلّا في حدود الوظيفة الخاصّة به؛ إذ خصّص العين للنظر، واللسان للذّوق، والأنف للشّم، والأذن للسّمع، وجعل كل منها في حالة تهيّؤ لإرشاد غيره إلى ما يجب عند كلّ أمر يصدر مقيّد، كما يرشد البصر القدمين إلى السّير في الاتجاه الذي يشاء العقل بلوغه، وعندما لا يكون الخوف مرافقًا لقطع المسافات تزداد القدمان ثباتًا تجاه الهدف الذي يستوجب الإنجاز، ومعها العينين تحمْل مسئوليَّاتها تجاه ما يجب أن تقدِّمه للقدمين من إرشاد، مما يجعل الإنسان متمكنًا من الوقوف على أدق الأشياء بإرادة وظهورها أمام المركز المقيّد لها برؤية واضحة، ولهذا عندما تُجبر العينان جبرًا فلا يكون للرّؤية وضوح، ولا تُكشف الحقيقة أمام الإدارة العليا ما يجعل المدير العام

غير قادرٍ على اتخاذ قرارات مُرضية وواضحة للأنا والآخر والوسطي وإنْ حاول واجتهد فيترتّب على ذلك فوضى، التي إنْ لم يُحسم الأمر فيها قد يشتدّ الصّراع ليكون فيه كلّ طرفٍ متطرّفٍ.

ومع أنَّ العقل هو المسئول الأوّل الذي يدير الإدارة العليا فإنَّ الإدارة العليا لا تدار به وحده فهناك القلب، وهناك العاطفة، ولكلٍّ منهما غاياته التي تمتدّ بين قوّة وضعف، فإن تطابقت رؤى المدير العام (المسئول الأوّل) مع المساعد له (القلب) كانت القرارات الصادرة ضميريّة، تُطمئن الأنا والآخر والوسطي، وإن غَلُبت رؤى العاطفة (المساعد الثّاني للمدير العام) مالت القرارات إلى ما يُشبع الغرائز على حساب ما يُشبع النفس التي لا تطمئن إلّا بقرارات الضمير العادلة التي لا تغفل عمَّا يرغبه القلب وما ترغبه العاطفة ولكلٍّ حاجاته التي يجب أن تُشبع باعتدال دون أن تكون على حِساب طرفٍ من الأطراف؛ ولذا عندما تكون قرارات العقل مع الضمير حاسمة فإنَّ العينين لا تقومان بتزوير الحقائق البصريّة وإن رغبت العاطفة.

إذن: تتعدَّد مراكز الإدارة في الإنسان من المدير العام المقيِّد ومُسَاعِديه المقيدين إلى الإدارات المركزيّة الأخرى وفقًا للصلاحيَّات والاختصاصات التي بها يُدار السَّمع بمتخصصين كما يُدار البصر بمتخصصين، وهكذا يدار الشّم واللمس والذّوق بمتخصصين، وهكذا أيضًا تدار الإدارات التي تليها في الأهمية بمتخصصين بالنطق، والمشي، والرمش، وكلّها تقرّر ما تشاء وفقًا للصلاحيَّات والاختصاصات والقيود الضابطة،

ولكنّ التنفيذ الموضوعي عندما يتعلّق الأمر بالمراكز الأخرى لا يتمّ إلا بعلم الإدارة العامّة قيدًا؛ ولهذا كلّما وجب ظهور المركز العام أو وجوده وجب ظهور المراكز الخاصّة، مراكز السّمع والشّم واللمس والذّوق والبصر وغيرها، ومن يحاول أن يجعل الأمر كلّ الأمر في إدارة عامَّة فإنه يجعل الحواسّ غير قادرة على أداء وظائفها التي خُلقت من أجلها ويدفع بعضها إلى التطرُّف الذي به تشوَّه الحقائق وتزوَّر فلا تُقدَّم للمسئول الأوّل (هي كما هي) ما يجعله في كثيرٍ من الأحيان يتخذ قرارات غير صائبة، وقد يتمسَّك بها ويجبر النَّاس عليها، وسواء أكان يدري أم لا يدري يجد نفسه قد دفع بعض الذين تمّ إجبارهم بغير حقّ إلى التطرُّف فكرًا وتنفيذًا؛ فيترتّب على تطرفهم كرهًا وكرهًا مضادًّا، وهذه لا تتم أو لا تحدث إلَّا بأسباب المعلومات الخاطئة والمزوَّرة التي قُدِّمت للمسئول الأوّل وترتّب عليها ما ترتّب من إجراءات قيدية وعن غير موضوعية.

إذن: بوجود الإدارة المركز تظهر مراكز متعدّدة، ولكلّ مركز أهميَّة تستوجب الاعتراف والتقدير والاعتبار وفقًا للتخصّص والاختصاص والخصوصيّة قيدًا، وهكذا المراكز تتعدّد بما يُمكِّن المواطنين من ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسئوليَّات، وإن لم يتمّ الاعتراف بذلك فسيكون التطرُّف من الأساليب المنتشرة بين من يريد نيل الاعتراف ومن لا يريد الاعتراف به.

فالمركز الذي يريد أن يكون على حساب طمس مراكز الآخرين سيتعرَّض هو الآخر للطّمس وبكلّ الأساليب، ومن يريد من المراكز الأخرى أن تُقدِّم له التنازلات تلو التنازلات فلن يكون قادرًا على إدارة ما يُراد له أن يديره بنجاح، مما يجعل الفشل مرافقًا له أينما حلّ وشتائم المواطنين تلاحقه إلى أنْ يرحلّ بإرادة أو يُرَّحلّ بالقوّة قيدًا.

ولأنَّ الحقوق متماثلة، والواجبات متباينة، والمسئوليّات أعباء ثقيلة، إذن: لا يمكن لهذه المعطيات أن تكون مقتصرة على مركزٍ واحدٍ، ولكن ينبغي أن تدور حوله بقوّة جذبه لها إرادة وإدارة متماسكة قيدًا ضابطًا.

وكما أنَّ الإنسان خُلق مركزًا في أحسن تقويم؛ فلا يتطابق مع أيّ مركز آخر في قدراته واستعداداته وخصوصيّاته الفرديّة والجماعيّة والمجتمعيّة، فهو على الأرض أين ما وجد أو وقف أو جلس هو المركز، وهكذا الآخرون كلّ منهم على الأرض هو المركز من خلال النّقطة التي يكون عليها، وفي حالة الحركة سواء أكانت إلى الأمام أو إلى الخلف أو إلى أحد الجانبين؛ فمركزه يتغير بتغيُّر مكان وجوده على الأرض أينما تحرَّك على أديمها، وبما أنَّ الأمر كذلك خَلقًا إذن: فلماذا لا يكون الإنسان مركزًا أينما وُجد؟

ولذا لا ينبغي أن يكون في الوطن الواحد مواطني العاصمة هم المركز والآخرون أطراف على الحدود مع تباين المسافات قربًا وبعدًا، بل يجب أن يكون المواطن على تراب الوطن مركزًا أينما وُجد من الحدود إلى الحدود؛ من خلال المساواة في ممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمل المسئوليَّات،

التي بها تتوافر مشبعات حاجاتهم المتطوِّرة في أي مكان هم فيه مركز دون تمييز.

وعليه: فمن لا يكون من المواطنين مركزًا سيتطرف بما يدعوه إلى الرّفض والتمرّد، ومصطلح (التطرُّف) لشد ما نسمعه متداولًا على الألسن بالمعنى الذي أُريد له أنّ يفهم به؛ ذلك أنَّ الذين أرادوا المصطلح بهذا المعنى يجعلون من أنفسهم نقطة الارتكاز التي يقوم عليها ميزان الحقّ والعدل بكفَّتيه، وفي رؤيتهم أنَّهم يحقّقون التوازن الفكري ويميّزون الفضيلة عن الرّذيلة وفق مقياس الارتكاز الذي اعتمدوه قيدًا؛ ولهذا فهم يرون أنَّ كلّ من ابتعد عن هذا المركز ووقف في طرف بعيد عنه يكون متطرّفًا، وهذه النظرة تنطلق من لسان حال الأنا الذي يُعبِّر عن بعض مكنونات النَّفس وتفكير العقل في النّظرة إلى الآخر والتقليل من شأنه قيدًا، ومن ينطلق من هذه النّظرة فقد افترض وقوف الآخر على طرف بعيد عن المركز الوسط حسب اعتقاده.

هذه الرّؤية تعدّ صرخة في وادٍ ما لم يتحاور الأنا مع الآخر من منطلق تعدّد المراكز عرفًا وشرعًا، فتتباعد في هذه الرُّؤية مفاهيم المصطلح مما يؤدِّي إلى توطيد التباعد في المواقف، ويصبح الحوار نوعًا من الهذيان عندما تُحوَّل القضيَّة إلى تعريف التطرّف حسب الموقع الذي تشغله الأنا في القرب منها أو البعد عنها قيدًا.

وعليه: فالبحث في تعدّد المراكز ضمن انساق متنوّعة بحسب الخط العمودي الذي يطرح تمظهرات يكون على أساسها انبعاث طروحات مختلفة، تعكس في الوقت ذاته المركز الواحد الذي يحاول أن يكون كما يرى نفسه مركزًا وحيدًا دون أن يحاول النَّظر إلى ما حوله، وهذا يتأتّى بطبيعة الحال من الأساس الفكري الذي بُني عليه الذي يحاول أن يلغي الآخر، ويضعه قيدًا في مكان ليس له مكانة، وهنا تكون الأنا مكتسية بلون الانفصام الفكري الذي يلغي المسافات ويحجم الرّؤيا، مما يؤدِّي إلى انفتاق انساق جديدة يكون عليها الآخر الذي غُيّب ولم تصبح له أي كينونة يستطيع من خلالها أن يكون طرفًا في معالجة ما يحدث وعلى كلِّ الأصعدة، فيحاول أن يلملم نفسه وأحواله وفق ما يراه من قيود، ويعيد إنتاجه ضمن النظرة التي يرى من خلالها الحلّ.

إنَّ مَن يرى وجوب التمركز على نقطة واحدة يكمن فيها الحلّ عائد إلى أمرين؛ هما:

ـ السّياق الفكري الذي يرى من خلاله أنَّ المركز الواحد هو الحلّ الوحيد، الذي ليس له بديل مهما كانت البدائل، وهذا ما يمكن أن يسمّى بالتقوقع الفكري الذي يرى كلٌّ من المركز والتطرّف أنّه الوحيد الذي يقول الحقيقة، وهذا يفضي إلى عدم تحديث الفكر ومعاودة الحوار المستند للعقل والمنطق والتجارب؛ فالتقوقع الفكري هو عدم القدرة على التغيُّر والتفهُّم والاستيعاب والتحليل والحلّ للمشاكل العالقة من معضلات ومستجدات

تطوُّريَّة حاصلة، وفي مختلف مجالات الحياة الخاصّة والعامّة أيًّا كانت، ويظهر المتقوقعون عاجزين أمام المتغيّرات الجديدة ومستجدَّاتها مما يؤدِّي إلى تراجعهم؛ ومن ثم عدم قابليتهم وقدرتهم على التحليل والتطوّر.

ومن هنا فالتصلُّب في الفكر والتعامل والممارسة المختلفة بغير حقّ يؤدِّي إلى التقوقع الذي نهايته التراجع والوقوع في الفخّ بسبب عدم التفهُّم والإدراك للمتغيرات الحاصلة في المحيط العالمي، كما أنَّ التصلُّب والخشونة في الرَّأي والممارسة تخفي عن صاحبها الخفايا، فالخشونة والتصلُّب بغير حقٍّ يؤدِّيان إلى النفور من أصحابها وبالتالي يتحولان إلى إعاقة في حركة التغيُّر والتطوُّر لديهم؛ فالخشونة والتصلُّب الفكري لا يكونان إلَّا ضدّ الآخر الذي يتعرَّض في دائرة الممكن إلى الرّفض والقبول والتغييب والإقصاء، وهنا تكمن علل المشكلة وتزداد الفجوة امتدادًا عن الآخر.

_ أمَّا دلالات المرونة في الفكر والممارسة على عكس ما تدلّ عليه الخشونة والتصلُّب؛ فبقدر ما يكون الأنا مرنًا يكون أكثر حكمة تجاه الآخر؛ فالمرونة تشعر الآخر بالطمأنينة كما أنَّها دليل لتفهُّم ظروفه التي بتفهُّمها يتمّ استقطابه واستدعاؤه إلى ما يجب أن يكون من أجل الجميع، وكلّما ازدادت الليونة والتفهُّم ازداد النفوذ؛ لأنَّ التفهّم يراعي مصالح الجميع وحتى شطحاتهم وتطلعاتهم التي لا تشكل ضررًا على أحدٍ، فالاعتراف بالآخر والتشارك معه على البيِّنة هي القوّة الحقيقيّة في الصّعود واستمرار

البناء السليم والانسجام المتواصل في سبيل الإنجاز وصناعة المستقبل الذي فيه الأمل.

وعليه: فعندما يرى الأنا نفسه أنَّه الأكبر أو الأقوى فليعلم أنَّه مهما قوي أمام توحُّد قوّة الجميع لن يظلّ إلّا الأضعف أمام الجميع؛ ولذا فالأفضل للجميع ألّا يكون من جنسهم أحد كبير ومتكبِّر عليهم، والأفضل لمن يرى نفسه أنَّه الأكبر على قومه أو شعبه أن يعيد نظرته لنفسه ويقيِّمَ حاله، ثم يقوِّمها بقوّة النّاس التي وحدها تستطيع أن تجعله الأكبر مكانة بينهم متى ما اعترف بأنَّهم سادة، وقدَّرهم بالفضائل والقيم التي قدّروه بها وجعلوا له مكانة بينهم.

أمَّا إذا تحقّقت هيمنة الأنا على الغير، فتكون هيمنته هي المضرَّة الرّئيسة في الحيلولة دون أن يفكِّر الأنا في صحة هذه الفكرة أو صلاحها أو مناسبتها أو خطئها أو فسادها، كما أنَّ الفكرة أيضًا تسهم إسهامًا كبيرًا في الحيلولة دون تفكير المرء في صلاح أفكار أخرى، وهيمنة فكرة من الأفكار على عقل المرء تدل على وجود قدر من انغلاقه عن العالم الفكري الذي حوله؛ فالهيمنة الفكريّة ستار فكري يكتنف صاحب الفكرة فيحجبه ويقيّده عن العالم الفكري، هذه الهيمنة التي تشيع لدى الكثير من البشر في جميع أنحاء العالم أحد المكامن الرّئيسة لتمزُّق البشرية، وعلى النطاق الأصغر تمزُّق المجتمعات إلى فئات مختلفة في مجالات السّياسة

والاقتصاد والمعتقدات والقيم الاجتماعيّة والفضائل الإنسانيّة؛ ممّا يُسهم في جعل عمليّة تحقيق التماسك الاجتماعي والشعبي مهمّة أشق.

ومن تجلّيات انحسار الهيمنة ومظاهر الانفتاح على الفكر الآخر أن يترك المرء في فكره هامشًا لاحتمال خطئه الفكري، وأن يدرك أنَّ الفكرة لا تتضمّن بالضّرورة الحقيقة كلّها؛ لأنَّ الفكرة مكوَّنة من عنصرين: ذاتي وموضوعي، وهما ذواتا نسبتين مختلفتين في بنية الفكرة، بينما تشتمل الحقيقة على قدر أكبر من العنصر الموضوعي، وأن يدرك المرء أنَّه لا حكر لأحد على معرفة الحقيقة.

وبانحسار الهيمنة الفكريَّة وبالانفتاح الفكري تُمَدُّ جسور الاتصال بين الأنا والآخر، وتتعزّز ظاهرتي التغذية الفكريّة والتأثير الفكري المتبادلتين، وبهذا الانحسار، وهذا الانفتاح يصبح الموقف الفكري مماثلًا أو عاكسًا لحقيقة تكوين الفكر من ذات وموضوع، وبالتالي يتمّ التقارب الفكري الذي يسهم في التماسك الاجتماعي علائقيًّا، وهو التماسك الذي يحتاجه الأنا والآخر على حدٍّ سواء.

ولذا فإنَّ إلغاء الآخر تنفرج له أسارير المتعنِّتين الذين لا يتجاوز تفكيرهم خطوات أقدامهم، فيحاولون الاقتناع بفكرة إلغاء الآخر التي تساورهم، فلا يجدونَ بديلًا عنها، ويُنصِّبون فكرهم وأنفسهم ضمن المكانة التي لا يمكن إلا الرّكون إليها ولا حلّ إلّا بها، والتساؤلات التي يمكن أن تطرح هنا:

ـ ألا يكون هناك بديل عمَّا يراه الأنا قيدًا أو حلًّا؟

ـ ألا يكون لدى الآخر أحد المفاتيح التي يمكن من خلالها الحلّ أو كسر القيد؟

ـ ألا يكون إلغاء الآخر علَّة مؤدّية إلى تعاظم مكانته وعلوّ شأنها؟

إنّ تمسُّك الأنا بأنَّه المركز وغيره هامش، وتمسُّك الهامش بأنَّه صاحب الحقّ في أن يكون مركزًا على حساب ذلك الأنا الذي يجب أن يُهمَّش، إنَّ هذه التشبّثات لن تؤدّي إلى حلّ إلّا إذا اعترفت بأن المركز حقّ للجميع مما يستوجب الالتقاء والتفاهم على إدارته بموضوعيَّة دون أن توزَّع الأدوار بما يجعل البعض ضحيَّة ولو كان من الغافلين.

ومن يرى أنَّ الحلّ لا يكون إلَّا في التطرّف ذاته، فقد يكون التطرُّف شاهدًا هو الآخر على ذاته بأنَّه ليس الحلّ، فكيف إذن لا يتمّ الحوار مع الفكرة قبل أن يتمّ عرضها عُملة مزوَّرة في السُّوق؛ فتؤدّي إلى تأزّمات مالية وتُطيح بالاقتصاد بين بائعٍ ومشترٍ.

ولذا فلا داعي للتجاهل فهو المؤدّي إلى إلغاء الآخرين وتحقيرهم وتغييبهم عن ممارسة الحقوق التي بها تتحقّق المنافع المشتركة دون أن يتضرَّر الغير، ومن لم يجد آذان مصغيَّة تسمعه وتُسهم في توفير ما يُشبع حاجاته المتطوِّرة، ليس له بدٌّ إلّا أنْ يتطرَّف بعيدًا ويتخنّدق لمقاتلة من كان سببًا في تهميشه وإقصائه وتحقيره وتغييبه وعدم الالتفات إليه ولو بطرفة عين.

وهنا يصبح المركز هو السّبب؛ لأنه أسقط كلّ الحلّول التي من شأنها أن تلغي التطرّف وتدخله ضمن خريطة جديدة يكون على أساسها الحلّ بتعدّد المراكز التي فيها يُقدّر الإنسان ولا يهان.

إنَّ تشبّث الأنا بما هو عليه وتشبّث الآخر بما هو عليه، يجعل كلًّا منهما في حالة تطرُّف؛ إذ لا لين ولا مرونة ولا تقدير ولا اعتراف بما يجب، وكذلك يصبح التساوي في التشبّث بالمرتكز الذي يؤجّج نار التطرُّف في كل صغيرة وكبيرة.

ومن هنا فالتشبّث لا يؤدِّي إلى الاندماج والتوافق والانسجام والتعاون والاستيعاب ولا حتى التكيُّف، بل يؤدِّي إلى ما يظهر التطرُّف في الفكرة والقول والفعل والسّلوك مما يجعل المفاجآت الدّموية مفجعة ومصارف الدّم تطالب بالمزيد.

فالتشبُّث بما لا يجب لا بدَّ أن يواجه بالرفض، أمَّا التشبُّث بما يجب حتى وإنْ واجهه الرّفض من البعض الذي لا يُقدِّر الأنا ولا الآخر؛ فلا يمكن أن يكون للرّافضين فيه حُجَّة أو مؤيِّدين موضوعيين؛ ولذلك يبطل؛ ذلك أنَّ السّياق العام للنسق الإنساني يشير إلى أنَّ الفضائل والقيم هي المرضية لتوافقات النّاس بإرادة؛ ومع ذلك فلكلّ قاعدة شواذ.

وإذا ارتأت الأنا أنَّه لا حلّ للمشكلة مع الآخر إلّا وفقًا لرؤيتها أو وفقًا لثقافتها ومعتقدها قيودًا؛ فهي لا تملك الاتباع، ولا مفاتيح الحلّ للمشكل الإنساني، وفي هذه الحالة توصف بأنَّها: (أنا متعصِّبة) لوجهات

نظرها وأفكارها ومنحازة لرغباتها؛ ولذا لا تتمكّن مِن تكوين علائق مع الآخر، فعلاقتها تكون ضمن المركز الذي تتمركز عليه قيدًا، فهي تعيش حالة من الانكفاء والجفاء فلا تتمكّن من الوصول إلى الآخر أو حتى التقرُّب منه على سبيل التعرف على أفكاره وآلامه وأحلامه، أو حتى في طريقة تفكيره التي في كثير من الأحيان يكون على أساسها الوصول إليه ومحاولة الاندماج معه، وصهر كلّ الخلافات والمشاكل والعوائق في بوتقة إظهار الحقيقة: (نحن سويًّا) و (نحن معًا).

فعندما تنظر الأنا لنفسها وكأنَّها العالم بأسره، تصبح واهمة بما تمتلئ به من ظنون بأنَّه لا يوجد شيء خارجها؛ فهي كما تزعم الأفضل وعلى كلّ المستويات، تعتقد فيما تسلك ولا تعتقد في سلوك الآخرين؛ ولهذا لن تكون قادرة على القيادة الجامعة، بل تصبح مقدرتها في اتجاه ما يفرّق، مما يجعل للتطرُّف مناخًا مناسبًا لإثارة الزوابع، وهنا يكون الصِّدام بين من يتمركز على أناته (شخصانيًّا) ومن قرّر مواجهته وكسر القيد؛ ولذلك تنعدم معطيات الالتقاء الذي يمكن أن يكون من خلاله الوصول إلى بداية عهد جديد في إذابة التشبّث، وجعل الأمور تسير وفق نطاق يلملم ما يحصل ويدخله في دائرة التوافقات التي يكون من خلالها تقريب وجهات النّظر وتغيير الاتجاهات نحو ما يجب؛ فالمركز قيدًا والتطرّف متقابلان في كلّ شيء إلى أن يجلسا حول طاولة واحدة (نحن معًا) و(نحن سويًّا) وحينها يعرفان أنَّهما كانا على وهم أنَّهما المتقابلان في الوقت الذي هما فيه

ليس كذلك؛ ولهذا الجلوس حول طاولة الحقّ المستديرة تجعل كلّ واحدٍ من الجالسين مركزًا مساويًا للآخر، وحينها تنجلي الحقيقة إنْ كانت النوايا مستهدفة تحقيق آمال مشتركة من أجل صناعة المستقبل الأفضل والأجود والأحسن والأهم والأعظم.

إنَّ تشبّث الإنسان بكلّ ما يتعلق به من أمر حقّ لا يستوجب الحرمان، والأمر هنا: كلّ ما يتعلق بالإنسان من سياسة داخلية وخارجية وحربٍ وسلمٍ وملكيّة وتعليم وصحة وكلّ ما من شأنه أن يُسهم أو يؤدِّي إلى إشباع حاجاته دون أن يكون على حساب إشباع حاجات آخرين؛ ولهذا من الوجوب التشبّث بممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسئوليَّات، بل من غير اللائق ألّا يتشبث الإنسان بكلّ ما يتعلّق بأمره الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وعلى كلّ المستويات الفرديَّة والجماعيَّة والمجتمعيَّة، إنَّه الأمر الطبيعي، ومن خالفه خالف قوانين الطبيعة، التي تأسّست على الفضائل الخيِّرة والقيم الحميدة التي جعلت الإنسان هو المركز.

إنَّ تشبّث الأنا برؤاها في مقابل الآخر برؤاه لا يؤدِّي إلى حلّ، بل في بعض الأحيان يؤدِّي إلى التطرُّف مع استخدام أشدّ الوسائل عنفًا ودمويَّةً، وبالتطرّف قد ينتزع الآخر اعترافًا يتمكَّن به من الجلوس على طاولة التفاوض والمراجعة التي تجعل كلّ طرفٍ خيرَ مستمعٍ لآخر جالسًا حول طاولة التفاوض المستديرة على قاعدة: (الحقّ للجميع ودون استثناء)،

وتجعله أيضًا خير متحدثٍ عن أمره (سببًا وعلةً)؛ ولذا لو لم يكن الحلّ كامنًا في التطرّف ما تطرّف من تطرّف فعلًا وسلوكًا؛ ولهذا عندما يكون عدم الاعتراف بحقوق الآخرين وواجباتهم ومسئوليَّاتهم هو السَّائد، فلا يكون لهم حلٌّ إلّا التطرّف الدموي الذي لا يجب الدعوة إليه بأيّ علة أو سبب، بل الانفتاح على مجموعة من الاختيارات والبدائل التي تهيئ الإنسان إلى الاختيار بإرادة، وحلّ هذا الأمر بين الأنا والآخر يمكِّن كلًّا منهما من طي الهوة بمسببات التخلّي عندما كانا يتشبّثان بأركان الحلّ المطلق، وبما أنَّ الحلّ مؤسّس على الزوجيّة (الأنا والآخر)؛ فلا يمكن أن تستمدّ الحياة قوّتها إذا أُلغي الآخر، وهذا الأمر يخالف الأمر الزّوجي الذي بُنيت الحياة عليه وغرست فيه نبتة الأمل.

ولأنَّ الأنا قوّة والآخر كذلك فإنَّ مقارنة كلا منهما بالآخر تجعلهما في تساوي القوّة، ولو جلس الأنا مع الآخر على قاعدة: (نحن معًا) و (نحن سويًّا) مع فائق الاعتراف والتقدير والاحترام لكان الحلّ بينهما مؤسّسًا على ما يجب، وقاطعوا الفرقة التي لا تكون إلّا بأسباب تمسُّك كل منهما برؤاه الخاصّة وتشبّثه بها.

ولذا فانَّ التشبّث بالحلّ هو الحلّ، فالإنسان القوّة يتوحّد مع الآخر دون أن يجعله خصمًا أو يدفعه إلى أفعال التطرّف؛ ممّا يؤدِّي إلى الوهن والضّعف كلّما تواجها.

ولهذا يجب أن يكون المركز للجميع إنْ أردنا أن نَقْبُرَ التطرُّف إلى الأبد، وإلّا ستظهر قاعدة: (إن عدتم عدنا)، وحتى لا يكون التشبّث قاعدة في غير محلّه؛ فعلى الأنا والآخر أن يكونا على قاعدة: (المرونة الاستيعابيَّة) التي بها يُعطي كلّ ذي حقٍّ حقّه، وبها يكون هامش القول الحقّ، والفعل الحقّ أكثر اتساعًا، وبها تجد مشاعر الاعتراف والتقدير حيّزًا لها، وتجد المكانة مكانتها، ويُعتمد المنطق الحُجَّة ويجد كلٌّ فسحته في ممارسة الأمر بإرادة حرّة، ولا قيود إلَّا للصّلاحيات والاختصاصات والمسئوليَّات الموضوعيَّة.

إنَّ رفض الآخر أو رفض آرائه قد يدفعه إلى التطرّف، وكلّما اشتد الرّفض اشتدَّ التطرّف، وفي هذه الحالة يصبح الأمر كمن يرمي حُزمًا من الليف على النَّار وهي مشتعلة، فينبغي للحلّ أنْ يكون على معطيات الوجوب وأهميَّة اتباعه ومعطيات الوجوب ومبرّراته أو الإحجام عنه؛ ذلك أنَّ الحلّ يؤسّس على حقائق؛ فلا يكون وقتيًّا لفترة محدودة، بل لا بدَّ أن يكون للزّمن القادم برمّته؛ فالحلّ الوقتي ليس هو الحلّ، بل هو في حقيقة الأمر يمثّل عثرة جديدة تجتمع حولها أفكار جديدة تؤجّج الخلافات وتمنحها وقتًا يساعدها كي تثور مرّة أخرى، وهذا الأمر يؤجّج كلّ ما يكون سببًا في عدم الالتقاء بين المركز قيدًا والتطرّف عنه (بين الأنا والآخر).

إنَّ اتساع المسافة بين المركز والتطرّف في البداية يستوجب تنازلات وطنيَّة وأخلاقيَّة كي يحدث التقارب الذي يكون فيه:

. فهم كلّ طرفٍ حقيقة الطّرف الآخر.

. محاولة الكشف عن نقاط الاختلاف والاتفاق.

. طيّ الهوة بين الطّرفين يبعد شبح الفشل والخوف والتوجّس.

. رسم معالم المستقبل الواجب صنعه بعد نهاية كلّ العلل والمسبّبات الكامنة وراء تأزُّمات كلا الطرفين.

تقديم التنازلات عن تلك الاشتراطات التي نتجت أيَّام المواجهة الباردة والمواجهة السّاخنة بين المركز والتطرّف تكمن فيها الحقيقة وأساليبها وكيفيَّة إظهارها من أجل التوصّل إلى حلٍّ مؤسّس على كفّتي العدل الذي تزول به المظالم، ويُكَفُّ به تقديم الضّحايا قربانًا عن غير طاعة.

وأيُّ تنازلات تُقدّم اليوم إنْ لم تكن مبنيّة على الحقائق لا تكون غدًا سببًا من أسباب التقارب، بل إنَّ الذين يتنازلون اليوم بغير حقٍّ سيتخاصمون غدًا بأسباب التنازلات، والذين يلجأون إلى الحقيقة معلومة بمعلومة وحُجَّة بحجَّة أولئك هم الذين يشخِّصون الحالة، ويعرفون مكامن العلل التي من خلالها يتوصَّلون إلى درجة التوافق دون إعطاء أيّ تنازلات.

إنَّ الدّخول في تنازلات إيجابيَّة يؤدِّي إلى حلٍّ مرضٍ، أمَّا تقديم التنازلات السلبيَّة فلا يؤدِّي إلى حلٍّ مرضٍ، حتى وإن توهَّم أحدٌ ذلك فلا يكون الحلّ نهائيًّا؛ ممّا يجعل المشكلة تظهرُ وتعود إلى ما كانت عليه؛ فبذور الفتنة المستقبليَّة تكمن في تقديم التنازلات السلبيَّة، وليس لها بدٌّ من حلٍّ

إلَّا بإحقاق الحقِّ وفق معطياته ومبرراته ومكانه وزمانه وخصوصيّاته، وإلّا ستعود الفتنة تشتعل بحطب نار التطرّف.

ولأنّه لا اختلاف بين من يقول: إنَّ الحلَّ يتمركز في نقطة محدّدة ومن يرى أنَّه لا حلَّ إلا بالتطرّف، فالحلّ أنْ تُفتح آفاق التقبُّل مبدأ بين الأنا والآخر دون طلب تقديم تنازلات مشروطة.

ولأنَّ التقبُّل حقٌّ فلا ينبغي له أن يصادر، ولأنَّه حقٌّ للطَّرفين فإنْ قُدِّم لهما تيسيرًا فهو الذي يطوي المسافات بينهما دون تقديم تنازلات مشروطة، وإذا لم تُفتح آفاق التقبُّل ستظلّ الأنا مستقلّة عن الآخر مثلما الآخر مستقلٌّ عنها إلى أن يعتمدا مبدأ التقبّل، وحينها يصبح التواضع مُمكِّن من الالتقاء والحوار والنقاش ويتم التوصُّل إلى الحلّ الذي لا يكون إلّا من أجلهما.

ومن هنا: يجب تعدّد المراكز طالما هناك من يُفكِّر في أن يحتكر المركز ويُقصي الآخرين عنه قيدًا، ومع ذلك لا ينبغي الإغفال عن أهميَّة تقدير المركز العام الذي تأسّس بإرادة لا بإكراه من أحد ولا على حساب أحد، بل تأسّس وفقًا لقاعدة التداول السّلمي على السُّلطة.

إنَّ الأنا والآخر يشتركان في النّوع الإنساني الذي يكتسب الأفكار التي تحدّد السّلوك متأثرة بالدّوافع؛ وهذه الدّوافع متنوّعة المصادر ومتعدّدة الاتجاهات، تفرض على السّلوك وسائل وأدوات في التعبير عن القناعات

الفكريَّة؛ ممّا يستوجب وقفة عند الدّوافع التي تحدّد السّلوك في اختيار أدوات التعبير.

قيدُ العقل أمِّيَّةً:

الأميَّة ليست جهلًا، ولا غياب معرفة، ولكنَّها انعدام دراية؛ لأنَّ الجهل لا يكون إلَّا بغياب العمليّة التعليميَّة، وغياب المعرفة لا يكون إلَّا بغياب المقدرة العقليَّة وقصورها، أمَّا الأميَّة فلا تكون إلَّا بانعدام الدّراية استنارة؛ ومن هنا تعد الأميَّة قيدًا على بلوغ الاستنارة والدّراية.

إذن: الأميَّة ليست الجهل ولا انعدام المعرفة؛ ذلك أنَّ الجهل والمعرفة يرتبطان بالمقدرة العقليَّة ومدى تلمّسها لما حولها، أمَّا الدِّراية فترتبط بمعرفة المجهول علمًا ومعرفةً، أي: إنَّها ترتبط بمعرفة المعجز والاطلاع عليه حِكمة، كما أنَّها ترتبط بمعرفة المستحيل وتقف دونه قيدًا.

ولهذا لا تعد الأميَّة قيدًا على التعلّم ولا المعرفة العامَّة، بل قيدًا على معرفة الدّراية، التي لا تكون معارفها ظاهرة إلَّا إيتاءً وإنباءً، أو تعلّمًا على أيدي من أُنباء بالعلم المعجز وأُتيا له إيتاء من الذي بيده أمر الحق المعجز وهو الذي لا يتم إلَّا بالإظهار عليه إظهارًا.

وعليه فإنَّ الأميَّة هي معاصرةُ الواقع سواء أكان متخلّفًا أم متقدّمًا، أمَّا الدِّراية فهي التجاوز للواقع بعد كسر قيد الأميّة بالعلم المعجز حِكمةً ودرايةً، وهي التي لا تكون إلَّا بموافقة العقل للصّواب.

ولهذا فإنَّ حدود الأميَّة قيدًا لا تتجاوز تصحيح المعلومة الخاطئة بالمعلومة الصَّائبة، أمَّا الدِّراية فتتجاوز ذلك، وتكسر القيد بغاية تصحيح علم الممكن في دائرة النسبيّة بالعلم المطلق إعجازًا (تصحيح علم الأرض بعلم السّماء).

ومع أنَّ الأميّة حياة فطرة، وفطرة الإنسان جاءت على حُسن التقويم خَلقًا، فإنَّ تجاوز قيد الأميّة وكسره لا يكون إلَّا بالدّراية وعيًا. فالعرب في ذلك العصر الجاهلي مع أنَّهم كانوا أميين فإنَّهم كانوا يجيدون القراءة والكتابة، فعلى سبيل المثال: سيدنا عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– حدثت له نقلة الدّراية من الجاهليّة إلى الإسلام بعد أن كسر قيد الأميَّة بقراءته جزءًا من سورة طه، وفي التَّاريخ نقرأ عن المعلقات السَّبعة وهي قصائد عُرف عنها أنَّها كانت تُكتب على صحائف وتعلّق في الأسواق والمنتديات العربيّة قبل الإسلام[11]؛ ولذا فالأميَّة ليست قيدًا على تعلّم القراءة والكتابة، بل هي قيد على من لا يدري بأمر السَّماء؛ ومن هنا فقيد الأميّة يحول بين من يدري بعلم السَّماء ومن لا يدري به؛ ولهذا فمفهوم الأميّة لا يحتوي على شيءٍ من الدّراية، وفي المقابل أيضًا فإنَّ الدِّراية لا تحتوي على شيء من الأميَّة.

وعليه: وجب القول:

[11] المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام، ج 7، ص 3.

إنَّ علم الدِّراية لا أميَّة فيه أبدًا؛ ومن ثمَّ فإنَّ مفهوم الأميّة يعطي مفهومًا مضادًّا لمفهوم الدّراية، وفي المقابل يصبح مفهوم العلم مضادًّا لمفهوم الجهل؛ ولهذا مع أنَّه لا وجود لأمَّة أميّة بعد الرِّسالة الخاتمة والرّسول الخاتم، فإنَّ الجهل بين أفراد الأمم قيدٌ على كلِّ بداية ونهاية.

ولهذا فالأمَّة الجاهلة هي الأمَّة التي تعيش التخلُّف ولا تُدرِك الحالة التي هي عليها من تخلّفٍ، وهي التي لم تأخذ بأسباب العلوم ولا تسهم في إحداث النُّقلة وبلوغ الأمل ونيله دراية.

ومع أنَّ الأميَّة على العقل قيدٌ صلبٌ فإنَّ الدّراية قادرة على كسر قيدها؛ وذلك كما كسرت أميَّة النبي محمَّد –عليه الصَّلاة والسَّلام–الذي كان قبل الوحي أميًّا والذي أصبح من بعده نبيًّا مدريًا.

وإذا أردنا أن نكسر قيد الأميّة معرفةّ فعلينا بتحديد المفاهيم ذات العلاقة بها وما تقيّده من مفاهيم متضادّة، والتي منها:

- الجهل في مواجهة العلم (الجهل قيد دون العلم).
- الشَّك في مواجهة اليقين (الشَّك قيد دون اليقين).
- الغفلة في مواجهة الصَّحوة (الغفلة قيد دون الصَّحوة).
- الوعي في مواجهة الغيبوبة (الغيبوبة قيد دون الوعي).
- الضلال في مواجهة الهداية (الضلال قيد دون الهداية).

. التيه في مواجهة المعرفة (التيه قيد دون المعرفة)؛ ذلك لأنَّ التائه هو الذي ليس له من الدّليل شيءٌ ليستدل به على الشيء معرفة.

. الأميّة في مواجهة الدِّراية (الأميَّة قيدٌ دون الدِّراية)، أي: إنَّ الذين تقيّدهم الأميَّة يكون بينهم والدِّراية حِجابًا؛ قال تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}[12]، وقال: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى}[13].

جاءت هاتان الآيتان مبيّنتين لمفهوم الأميّة بأنَّها عدم الدّراية بالمطلق، وهذا يخالف الجهل؛ إذ لا جهل بالمطلق، ولا علم بالمطلق؛ ومن هنا فالجاهل وإن لم يتعلّم فإنَّه يعرف ما يعرفه.

ولأنَّ رسول الكافَّة ليس بأميّ، فهو بما أُعلِمَ عَلَّم وبشَّر وأنذر وحرَّض وحلَّل وحرّم، وهو قَبل الرِّسالة محمَّد الأميّ، وبعدها محمَّد رسول ونبي؛ ولذا فالفرق كبير بين محمَّد الأميّ الذي لا صلاة ولا تسليم عليه في زمنها، ومحمَّد الرَّسول النبي الذي يصلّي الله وملائكته عليه، ومن بعده يصلي عليه ويسلم المؤمنون الذين أسلموا وجوههم لله ربّ العالمين.

وعليه: فإنَّ ما يعنيه مفهوم الأميَّة مما يعنيه أنَّه لا وجود لشيءٍ يحوطنا في دائرة الممكن ونحن لم ننتبه له، أو نتعرَّف عليه، أو ننهل منه ونتعلَّم، وهذا يدلُّ على أنَّ ما نحن منه على أميَّة لم يولد بعد، ولم يكن في دوائر تفكيرنا، ومن ثَمَّ فنحن أميّون بكل ما لم يُخلق، ونحن نجهل أمر ما خُلق ما

12 الأحزاب: 63.

13 عبس: 3.

دمنا لم نتعرَّف عليه بعد، وبعضنا جاهلٌ بما يعلمه البعض، وسيظل الجاهلُ جاهلًا حتى يعلم ما عَلِمهُ غيره، وفي المقابل سيظل الأميُّ أميًّا حتى يدري العلم المعجز فيؤمن به ويُسلّم.

ولأنَّ القرآن وحي موحى، فهو لم يكن معرفةً سابقةً لمن هم على قيد الحياة أميَّةً، ولم يكن مسطَّرًا في ألواحٍ أو كتبٍ؛ وذلك لخروجه عن دائرة الممكن التي تحصره بين متوقّع وغير متوقّع، فالوحي لا يأتي إلَّا من آفاق المستحيل الذي لا يحوطه شيء؛ ولذلك فكل السَّابقين على نزوله أميّون، وكل الذين آمنوا به بعد نزوله غير أميّين.

وبما أنَّ القرآن موحى لمحمَّد وحيًا، إذن لا شك في أنَّه كان أميًّا بالنّسبة إليه (بالنّسبة للقرآن)، أي: لا يعلمه أبدًا؛ ولذا فمن بعد وحيه إليه لم يعد أميًّا باعتباره أصبح يعلمه، ومن يعلم الوحي (القرآن) لا يمكن أن يوصف بالأميّ، بل هو في دائرة النسبيَّة يوصف بالعالم به[14].

العقلُ أميَّةً واستنارةً:

العقلُ في زمن الانتظار غفلة لا يكون إلَّا أميّةً بلا رؤية، أمَّا العقل في الزّمن بلا انتظار صحوة فلا يكون إلَّا دراية واستنارة؛ ذلك أنَّ العقلَ دراية هو تلك الحيويّة المستنيرة وعيًا، وهو الذي يعلم بالشّيء بعد أن كان لا شيئًا مجهولًا، كما أنَّه يعلم الحكمة التي تخفي من ورائها سرًّا.

[14] عقيل حسين عقيل، أمحمّد أمي؟، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م، ص 23- 41.

والعقل دراية واستنارة ليس ذلك العقل الممنهج برؤية تعليميَّة ولا رؤية ثقافيَّة، بل هو ذلك العقل المتجاوز لدائرة الممكن تحدٍّ وخوارق، إنَّه العقل الممكَّن من دخول دائرة المعجز التي تدريك بكل شيء بين البداية والنهاية دون أن ترى أيّ منهما (البداية والنهاية).

ومع أنَّ الاستنارة عمليَّة عقليَّة فإنَّ مَن تمكَّن منها تمكَّن من طي صفحات الأميَّة إلى الأبد، ومع أنَّ الدّراية استنارة لا تُعلّم فإنَّ علومها تُعلَّم؛ فعلى سبيل المثال: دراية النبي محمَّد جعلته على نُقلة من الأميَّة إلى الدّراية التَّامة، أي: إنَّ ذلك النّبي الأمّي بعد أن أعلمه الله بالمعجزات أصبح نبيًّا يعلم ما لم يعلمه غيره، ومن هنا أصبح محمَّدٌ نبيًّا ومعلّمًا يعلم ويعلِّم غيره ما أُنبأ به إنباءً، وهو المعجز الذي لا يبلغه البشر إلَّا بأمر من العليم الحكيم.

ولذا فالأميّ هو الذي لا يدري ولا يعلم بما لم يُعْلِم به، والنّبي الأميّ هو محمَّد الذي لم يدرِ ولا يعلم بأمر الرِّسالة التي كُلِّفَ بها قبل تنزيلها عليه تنزيلًا؛ ومن ثمَّ فالذي لا يعلم بالشَّيء لن يكون له من الشيء شيئًا به يدري، أمَّا الذي يَعلَم فإنَّه يُعلِم بما أُعلِم به ويُعلِّمَه لمن هم لا يعرفونه ولا يدرون.

ومع أنَّ اللُّغويين كما جاء في لسان العرب قد عرَّفوا الأميّ أنَّه: "المَنْسُوب إلى ما عليه جَبَلَتْه أُمُّه، أي: لا يَكتُبُ، فهو لأَنَّه لا يَكتُب أميّ؛ لأن الكِتابة مُكْتسَبَةٌ؛ فكأَنه نُسِب إلى ما يُولد عليه، أي: على ما وَلَدَته

أُمُّهُ عليه"[15]، فإنَّنا نرى في المقابل أنَّ الأميَّ ليس كذلك، بل هو مَن لا دراية له بما لا يُعلم به، ومن هنا فلا علاقة بين الأمّي وعدم معرفة القراءة والكتابة، فهذه العلاقة لا تكون إلَّا بين الجهل والتعلّم، أو بين التّيه والمعرفة، أمَّا الأميّة فليس لها علاقة إلّا بعدم الدِّراية والاستنارة؛ ومع ذلك فإنَّها حالة غير دائمة وهي قابلة للإزالة من الجميع في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

وعليه: فالعقل من حيث ملكاته هو العقل، سواء أكان في زمن الانتظار أميَّةً، أم أنَّه في زمن السِّباق صحوة (العقل هو العقل)، ولكنَّ الدّراية استنارة في زمن السِّباق صحوة اختلفت عمَّا كانت عليه في زمن الانتظار أميَّةً؛ ذلك أنَّ الدّراية لا تكون إلَّا استنارة وقد قدحت بنورها في عقل من تمّ اصطفاؤه للأميين نبيًّا.

والأميين هنا ليس كما يظن البعض من النَّاس أنَّهم أمَّة العرب فقط، بل هم كل الذين لم يعلموا من الرِّسالة الخاتمة إلَّا أنَّها رسالة وستنزَّل على نبيٍّ اسمه أحمد.

ومن هنا نعرف أنَّ الأميَّة كانت على العقل قيدًا وقد كُسرت بالرِّسالة الخاتمة بعد أن أدرى الله بها محمَّدًا –عليه الصَّلاة والسَّلام، واستناره بها معجزةً وحكمةً، وهو النَّبي الذي جاء داريًا بها وللنَّاس كافة مبشّرًا ونذيرًا.

15 لسان العرب، ج 12، ص 22.

ومن هنا فالعقل أميَّة كان عقلًا بشريًّا عصبيّةً ورغبةً وشهوةً، أمَّا العقل بعد أن استنار أصبح عقلًا إنسانيًّا وعلى الدِّراية عدالة ومودّة ورحمة.

ومع أنَّ العقل فيه من الأميَّة ما فيه فطرة وشهوة، وله من الدِّراية ما له استنارة وحكمة، فإنَّه في كلتا الحالتين مقيّدٌ؛ ولذا فهو في زمن قيد الانتظار أميَّةً معفو عنه فيما ارتكبه بلا دراية، أمَّا في زمن الصّحوة استنارة فقيوده دراية قد كثرت.

العقلُ قيدُ هويَّةً:

العقلُ دائمًا لا يكون إلَّا قيدُ معارفِهِ، وتعاليمه، وفكرِهِ، وسيادته، وكلّ ما يشكّل له عنوان لا يراه إلَّا ذا قيمة؛ ومن هنا تشكّل هذه العناوين قيودًا عليه؛ كونها شكّلت له هويَّةً، وبها تميّز.

والهويَّة كما تكون قيدًا على المستوى الفردي وفقًا للخصوصيَّة الفرديَّة تكون قيدًا على المستوى الجماعي وفقًا للخصوصيَّة الجماعيَّة، وكذلك تكون قيدًا على المستوى الاجتماعي وفقًا للخصوصيّة الاجتماعيَّة أو الشَّعبيَّة التي من بعدها يرتقي الأفراد والجماعات إلى المستوى الإنساني قيميًّا؛ حيث تقدّر قيمة الإنسان بغض النَّظر عن خصوصيَّاته التي جعلت له هويَّات تقيّده عند كلِّ خصوصيَّة.

ولذا فمع أنَّنا نلاحظ قيد وحدة الشّعب في الدّولة الواحدة، فإنَّنا نلاحظ أيضًا قيود تعدّد الهويَّات فيها، كما هو حال الشّعب الأمريكي

الذي ينصهر في بوتقة الهويّة الأمريكيَّة ولكلٍّ إطاره الاحتياطي من المرجعيَّات التي في حالة الضّرورة يتمكّن بعض المهاجرين من العودة إليها، أو العودة إلى شيءٍ منها وهو ما زال في مهجره (الوطن البديل وهويّة الانصهار الجديدة)؛ وذلك بغاية استمداد شيءٍ من الدّفء المفقود، وهذا وإنْ كان على علاقة مباشرة بالعاطفة فإنَّ أثر الهويّة الجديدة سيظل بحسن منافعه قيدًا عليه بين هويّتين في غربتين:

الأولى: قيد الغربة عن دفء الوطن المهاجر منه.

الثَّانية: قيد غربة المهاجر عن الثَّقافة في الوطن المهاجر إليه، وهذه لا تكون واضحة إلَّا في الجيل الأوَّل من المهاجرين، أمَّا الجيل الثَّاني من المهاجرين فسيكون الأثر الأقوى للهويّة الجديدة وثقافتها حتى وإن كان الدين مختلفًا، مما يجعل قيد هويّة الوطن مهما عظمت لا تكون على حساب عظمة الدّين.

ولأنَّ للُّغات هويَّات، وللثّقافات هويَّات، وللأديان هويَّات، وللشّعوب هويَّات، وللمجتمعات هويَّات؛ إذن: لا استغراب إنْ تتعدّد الهويَّات قيودًا وتتوحّد في وطنٍ واحدٍ، بل الاستغراب أن تكون كل هويّة وكأنَّها وطنٌ بذاتها داخل وطن الهويَّة المشتركة؛ حقوق تمارس، وواجبات تؤدّى، ومسئوليَّات تحمل.

ولذا فقوّة رابطة الهويّة بقوّة سريانها في عقول المنتميين إليها من الهويَّات اللاحقة بها انتماءً؛ حتى تشكِّل لهم ضميرًا عامًّا مشتركًا لا

يجتمعون على شيءٍ إلَّا به قيدًا، وهذا لا يكون على القوّة الجاذبة رابطةً إلَّا إذا كانت الهويّة المشتركة تمدّهم بالدّفء قيدًا، وتغنيهم أو تعوضهم عمَّا كانوا فيه من دفءٍ ولو كان نسبيًّا.

ولذا فمع أنَّ الولايات المتحدة الأمريكيّة دولة واحدة فإنَّ هويَّات شعبها بالعشرات؛ إذ الهنود الحمر يشكِّلون هويَّة في قلب أمريكا، واللغة الأسبانيّة تشكل هويّة في قلب أمريكا، والدّين الإسلامي يشكل هويَّة في قلب أمريكا، واللوبي الصّهيوني يشكّل هويَّة في قلب أمريكا، والجالية العربيّة تشكّل هويَّة في قلب أمريكا، والأفارقة الأمريكان يشكّلون هويَّة في قلب أمريكا، وهكذا تتعدّد الهويَّات وتتنوّع وأمريكا واحدة؛ إذ شعبها يتساوى في السّيادة والهويَّة الأمريكيَّة المشتركة، ومع أنَّه لا خطر في ذلك، فإنَّ الخوف ينذر بأنَّ هذه الهويَّات قد تكون في المستقبل مستقلَّة وذات سيادة في حالة ما إذا تعصّبت كتلة من الكتل على حساب كُتل أخرى، وهذا ما يُستقرأ مما أقدم عليه الرّئيس السَّابق دونالد ترامب في أواخر أيَّام حكمه عندما حرّض بعضًا من البيض المتعصّبين له ولكتلته على كسر هيبة السّيادة الأمريكيّة المتمثّلة في حرمة مجلس شيوخها ونوابها؛ حيث اقتحم أنصاره مقر الكونغرس الأمريكي يوم 6 من يناير 2021م وكأنَّهم غير مبالين ولا مقيَّدين بالسِّيادة الأمريكيَّة التي انتخب الرَّئيس جو بايدن رأسًا عليها بدلًا من الرَّئيس رونالد ترامب؛ ومن هنا حدث ما لم يكن متوقَّعًا وهو الذي يشير إلى أنَّ كل شيء في المستقبل الأمريكي سيكون ممكنًا بما

أنَّ هناك من يعمل تعصُّبًا بغاية استعلاء العرق الأبيض على غيره من الأعراق الأمريكيَّة.

وهكذا الحال في كلّ الدّول (كثر عدد سكانها أم قلَّ)، والقصد بالدّول هنا تلك التي تتعدّد الهويَّات فيها مع شيء من التعصّب لأحدها على حساب الأخرى؛ ففي ليبيا التي جَمَالُهَا من جمال ألوان طيفها (عرب، وأمازيغ، وطوارق، وتبو) مع أنَّ لها هويَّة وطنيَّة متماسكة دينًا وثقافةً وعادةً ولغةً وسلوكًا، فأنَّ عصبيّة الدّم فيها إن تبنَّاها أهل الفتنة قد تكون على حساب سيادة الوطن ووحدة ترابه وسلامة أمنه.

ومع أنَّ الأقليّة لا تسود على حساب الأكثرية إلَّا استثناءً، فإنَّ الهويّة الوطنيَّة تتصدّع إذا لم تَسُدْ المساواة وطنيًّا بين أبناء الشّعب؛ ومن هنا لا فرق بين المواجع والتأزُّمات في حالة ما إذا سادت الأكثريّة على حساب الأقليَّة، أو أنَّ الأقليَّة قد سادت على حساب الأكثريَّة؛ ولأجل القضاء على المواجع والتأزّمات الوطنيّة يجب أن تكون الهويّة واحدة لوطنٍ واحد مع تقدير المختلف واحترامه والاعتراف به لونًا جميلًا من جمال ألوان الطّيف الوطني، ومن ثمَّ ينبغي أن تكون للشَّعب كلّه حقوقٌ تمارس، وواجباتٌ تؤدّى، ومسئوليَّاتٌ تحمل، ولا إقصاءَ ولا تمييزَ إلَّا قُدرةً وعلمًا ومعرفة وتخصُّصًا ودرايةً وخبرةً وتجربةً تخدم الوطن قيدًا، وتعمل على نهضته ورفعة شأنه وصون سيادته.

ولأنَّ اختلاف الأديان يؤدّي إلى اختلاف الثَّقافات والسُّلوكيَّات، فإنَّه إنْ لم يُنتبه لأهميَّة المختلف بناءً وإعمارًا فقد يكون المختلف على حساب الهويّة الوطنيَّة سلبيَّة ودونيَّة؛ فمصر على سبيل المثال: شعب واحد (مسلمين ومسيحيين) هويّة واحدة (مصر أوَّلًا وآخرًا)، ولكن إنْ أصبح المسلمون فيها مفضَّلين على المسيحيين، أو أنَّ المسيحيين هم المفضَّلون فيها على المسلمين؛ فالأمر بلا شكّ سيتغيّر هويّة وقيد عصبيَّة، وبخاصّة إنْ مُنحت الفرصة لأهل الفتن وموقدي نيرانها.

وهكذا الحال في العراق شعب وهويَّته الوطنيّة (العراقيّة) على الرُّغم من اختلاف أعراقه ودياناته ومذاهبه الدِّينيَّة والفكريَّة، ولكن إنْ شعر الأكراد بأنَّهم مواطنون من الدّرجة الثَّانية، فإنَّ الشّعور بأهميَّة الهويّة الكرديّة قيدًا يصبح خيرَ ما يمدّهم بالدّفء على حساب دفء الوطن وهويَّته العراقيَّة، وكذلك إن شعر أهل السُّنة بأنَّ أهل الشّيعة هم المفضَّلون في العراق، أو عكس ذلك أنّ السُّنة هم المفضَّلون فيه، فالأمر لا بدَّ وأن يتغيّر ولا يكون إلَّا على حساب الهويّة العراقية وسيادته الوطنيّة.

وعليه: في دائرة المتوقّع لا وطن إلاّ وله هويّة، وفي دائرة غير المتوقّع يصبح الوطن بلا هويّة؛ فمن أراد أن تكون له هويّة بها يتميّز كما يتميّز الآخرون بهويّاتهم الوطنيَّة قيدًا فعليه بالولاء للوطن، ومن يغفل عن ذلك أو يجهل يجد نفسه مُعنونًا بعناوين لا ترتقي به إلى تأسيس دولة.

ومن هنا فإنَّ الانتماء إلى الوالدين يؤسّس للانتماء للأسرة، والانتماء للأسرة يؤسّس للانتماء للعشيرة، والانتماء للعشيرة يؤسّس للانتماء للقبيلة، والانتماء للقبيلة يؤسّس للانتماء للأمّة، والانتماء للأمّة يؤسّس وطنًا بكامله.

أمَّا الانتماء إلى الحزب فلا يؤسّس إلّا للمصلحة، سواء أضاقت دائرة المصلحة قيدًا أم اتسعت، فعلى سبيل المثال: الانتماء للحزب الدِّيمقراطي الأمريكي، يعني: الانتماء إلى رؤية على ضوئها ترسم السّياسات والخطط التي لا تثق في رؤية الحزب الجمهوري، والانتماء للحزب الجمهوري يعني: الانتماء إلى رؤية على ضوئها ترسم السياسات والخطط التي لا تثق في رؤية الحزب الدّيمقراطي، ومع أنَّهما الحزبان الرّئيسان في الولايات المتحدة الأمريكيّة، فإنَّ الانتماء إليهما يتبدّل بتبدّل الرّؤية؛ إذ لا قيد سوى حريَّة الاختيار عن إرادة؛ ومن هنا يتّضح الفارق بين الانتماء للحزب الذي يتبدّل، والانتماء للوطن الذي هويَّته قيدًا لا تتبدّل.

أمَّا في عالمنا المتبدّل فكلّ شيء فيه يتبدّل؛ فيه الانتماء للوطن يتبدّل بالانتماء للحزب، وفيه دائرة الحزب تمتدّ على حساب حدود الوطن، كما هو الحال لدى بعض الأحزاب ذوات العصبيّة الدينيّة أو الفكريّة المتأدلجة الذين يرون الانتماء إلى الأمَّة بالمفهوم الدّيني أو الأيديولوجي هو الانتماء، وما الأوطان إلّا وسيلة لتحقيق غاية الانتماء إلى الكرة الأرضيّة. أي: إنَّهم لا يرون للدّولة حدودًا إلّا الدّين أو الأدلجة؛ ولذا فهم يرون أينما امتدّ

الدّين امتدّت الدّولة، ومن هنا فهم لا يرون أهميَّة ولا قيدًا لكيان وطني يقوم على التنوّع الدّيني، وكأنَّ الخلق كلّ الخلق أمَّة واحدة، وهذا ما يخالف ما خُلق النَّاس عليه؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَلَو شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّة وَٰحِدَة وَلَا يَزَالُونَ مُختلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُم}[16].

ولأنَّنا من سُكّان العالم المتبدِّل؛ فمعظم الأحزاب فيه تتنافس وأحيانًا تتصارع من أجل مصالحها الخاصّة، وليس من أجل مصالح الأوطان؛ فالنَّاس في الأحزاب المتأدلجة يربطون مصالحهم بنجاح الحزب حتى ولو كان نجاحه على حساب سقوط الوطن وانكسار سيادته، وهم بهذه السُّبل والأساليب يدفعون البعض للانقلابات والمؤامرات والتمرّدات والصّدامات؛ فينشغل الجميع بما يكون سائدًا على حساب مصالح الوطن دون استثناء.

إذن: في دائرة المتوقَّع لا تكون هويّات الشُّعوب قيودًا إلَّا في أوطانهم، ومن غير المتوقّع فلا تكون هوياتهم قيودًا إلَّا على حساب أوطانهم؛ ولأنَّها الهويَّة فلا هويَّة إلّا بخصوصيَّة متميّزة عن غيرها من الخصوصيَّات كما غيرها يتميّز عنها بخصوصيَّاته قيدًا.

وعليه: فالهويّات البشريّة لا تتكوّن من مكوّنٍ واحدٍ، بل من مجموعة مكوّنات، منها: اللغة، والدّين، والثَّقافة، والعرف، والعادة، والآداب، والفنون، والأصل، والانتماء، والتّاريخ، والزّي الوطني، أمَّا أنْ يراها البعض

[16] هود: 118، 119.

على غير ذلك؛ فهذا إنْ حدث استثناء، لا يكون إلّا في دائرة غير المتوقّع قيدًا.

ومع ذلك لا يؤخذ بالاستثناء إلّا استثناء (اضطرارًا)؛ فالاستثناء لا يكون إلّا بعلل الضّرورة المؤقّتة، ولأنَّها الضّرورة المؤقّتة؛ فالضرورة لا يمكن لها أن تكوِّن هويّة وطنيَّة، حتى وإن اتخذها بعض الأفراد موقفًا مؤقّتًا.

ولأنَّها الهويَّة الوطنيَّة فهي المحتضنة لكلّ المواطنين دون أن تستثني أحدًا وإن اختلفت أطياف ألوانهم؛ ولذا فالهويّة دائمًا تمدُّ مواطنيها بدفء الوطن، كما تمدّهم بأهميَّة العُرف والعادة، وعظمة الدّين، وحلاوة اللغة، وجمال الثَّقافة، ورفعة الفنون والآداب، فالهويَّة الحاضنة لجمع شمل المواطنين تمدّهم بقوّة الانتماء التي تغرس الثّقة فيهم وتقيدهم خوفًا عليها، ممّا يدفعهم بقوّة دفئها إلى ممارسة حقوقهم، وأداء واجباتهم، وحمْل مسئوليَّاتهم، وفي المقابل إنْ حاول أحدٌ حرمانَهم منها يرفضون ويتحدّون، ويثورون من أجل وحدة الوطن، وفك القيد أو كسره بغاية استرداد السِّيادة واحترام الهويَّة قيدًا.

وعليه: فالهويَّة الوطنيَّة قيدًا هي الرُّوح التي تبعث الحياة في الوطن، وتمد المواطنين بدفئها، فإنْ خرجت روح الوطن (هويّته) بأيّة علّة أو ضاعت وانكسرت، أصبح الوطن لا يزيد عن كونه مادة ترابيَّة (جغرافيا ليس إلَّا).

ومع أنَّ الهويَّة قيدًا فإنَّها روح الوطن التي لا تولد الكرامة إلَّا منها، ومن ثمَّ فوحدة الوطن تضعف وتشيخ بمؤثّرات داخليَّة عندما تظهر على

السَّطح انقسامات بين ألوان طيفه، وعندما تصبح الشَّهوة رأس نظامه، وعندما تسود المظالم بين النَّاس تهميشًا، وإقصاءً، وحرمانًا، وهيمنةً[17].

إذن: فكما أنَّ التهميش والحرمان والهيمنة والإقصاء معطيات لإضعاف الدّولة، فهي كذلك معطيات لإسقاطها ومسخ هويَّتها وسيادتها، التي بعللها يسود الخصام والاقتتال الدَّاخلي والتجزئة الوطنيّة وبخاصّة عندما يلحق التهميش والإقصاء خصوصيَّات ألوان الطيف الوطني.

ومن هنا فمفهوم الهويَّة يعني: إثبات الشّيء (هو كما هو)، وليس (كما ينبغي أن يكون)، فالوطن هو الوطن بهويَّته الشَّاملة لألوان طيفه قيدًا.

العقلُ قيدَ وهمٍ:

مع أنَّ الوهمَ حقيقةُ الواهمين قيدًا، فإنَّ ما يتمّ الإيهام به ليس بحقيقة، ومع أنَّ هذا الأمرُ أمر وهمٍ، فإنَّ الواهمين لا يفرّقون بينه والحقيقة؛ ومن هنا فالواهمون لا يميّزون بين ما يُغيِّب العقل عن معرفة الحقيقة وكشف الزّيف عنها وهمًا؛ ولهذا فحال الوهم من الحقيقة قيدٍ كحال الكذب من الصّدق قيدٍ، وهكذا تمامًا حال السَّراب من الماء، ومعظم الواهمين إذا ما أتيحت لهم فرص الاختيار فلا يرون من الألوان إلَّا أحد اللونين: (الأسود أو

[17] عقيل حسين عقيل، السياسة بين خلاف واختلاف، الزعيم للطباعة والنشر، القاهرة: 2014م، ص 47.

الأبيض)، وهذا أيضًا حال المتأدلجين فهم لا يرون إلَّا بعين الغير الذي أوهمهم بأنَّ أعينهم لا ترى صوابًا، ومن ثمَّ فهم في حاجة لسلامة عينه التي ترى دون غيرها كلّ شيء بما فيها شئونهم؛ وبهذا يُسلِّمون أمرهم إليه قيدًا وهم يعتقدون أنَّه لا مستقبل لهم إلا المستقبل الذي يرتضيه، ويوجّههم إليه، مما يجعلهم كالأوراق المسحوبة نسخة واحدة (إنَّها أوراق الوهم قيدًا).

ومن ثمَّ: فمن يقنع نفسه بأنَّه البطل، أو العالم، أو الزّعيم، أو القائد، أو الخليفة فهو لا شكّ أصبح يعيش حالة من الوهم قيدًا، ومع ذلك فقد يصدّق البعض ادعاءاتهم وأوهامهم وأخصُّ بالبعض: (الذين هُزموا في معارك سابقة، أو ضاقت بهم الدّنيا بما رحبت، أو من تكون لهم أوهام مرجوّة) فيتعلّقون بمثل هؤلاء وكأنَّهم المنقذ، فيضحُّون بمستقبلهم من أجلهم حتى يقبرهم الوهم قيدًا، أو ينعم الله عليهم بغضبٍ يقلب الطَّاولات على رؤوس الموهِمين قيدًا، أو أن تلد لهم الأرض طفلًا مثل ذلك الطّفل الذي رأى الملك عاريًا؛ حيث يُحكى: أنَّ أحد الملوك خدعه خيّاط محتال وأقنعه بأنَّه سيصنع له ثوبًا سحريًّا عظيمًا لا يراه إلَّا الحكماء. اقتنع الملك بمهارة الخياط المحتال فظهر على وزرائه من على شرفة القصر المطلة على الحديقة عاريًا تمامًا، وقال: انظروا ما رأيكم في هذا الثّوب السّحري الذي لا يراه إلَّا الحكماء؟! فخاف الوزراء من غضب الملك فقالوا وكأنَّهم يقرأون أنشودة سبق لهم وأن حفظوها: إنَّه ثوب عظيم يا مولانا، وأضاف بعضهم: لم نرَ في حياتنا أجمل ولا أروع من ثوبك هذا، ولكن المفاجئة جاءت من طفل

كان من بينهم في حديقة القصر، فقال ببراءة الطّفولة: أين هو الثّوب الذي ترونه؟! ثمَّ صاح بأعلى صوته: إنّي أرى الملك عاريًا... إني أرى الملك عاريًا.

هكذا هي بالتمام حقيقة التُّبَّع والذين تأدلجت عقولهم قيدًا بأوهام وأفكار لا تَمتُّ للحقيقة بصلة، وجميعهم ينطبق عليهم: (إني أرى الملك عاريًا)؛ ولهذا دائمًا الوهم مخالف للحقيقة؛ ومن ثمَّ يجب أن يُكسر قيده قبل أن يجعل من الأسوياء معاقين.

وإذن فالتأدلج وهم يجعل من المتأدلجين أدوات مسخّرة بأيدي كبير الواهمين، والواهم أوَّل ما يوهم نفسه بأنَّه يفهم أكثر من غيره، ويعلم أكثر من غيره، ومن ثمَّ على الغير اتباعه وطاعته وإلَّا فهم في ضلال، ولا منقذ غيره؛ فيتظاهر وهمًا أنَّه الزّعيم، أو القائد، أو المنقذ، أو المفكّر، وعندما يستشعر أنَّه في أعين البعض يبدو وكأنَّه كذلك يزداد في تصنّعه قائدًا أو زعيمًا أو مفكّرًا حتى يثبت بحق أنَّه الواهم قيدًا.

وعليه: فالوهم قيدًا لا يزيد عن كونه تضخيمٌ للأنا الذي يبلغ الحال به وهمًا أنَّه لا يرى مركزًا للعالم إلَّا هو دون غيره، ومن ثمَّ يرى وجوب دوران العالم من حوله دون سواه. وبهذه الحالة لا فرق بين الواهم والكاذب الذي يعرف حقيقة نفسه أنَّه يكذب، ومع ذلك عندما يجد النَّاس تستمع له فيصدّق وكأنَّه الصَّادق؛ ولهذا فالمصدّقين لما يقال من دون تبيّن ولا امتلاك شجاعة مثل شجاعة ذلك الطفل سيظلون واهمين بلا إرادة، وسيظلون في

حاجة لمن يساعدهم على كسر قيدهم وما ألمَّ بهم من وهمٍ؛ ولهذا لا يكسر الوهم إلَّا بإظهار الحقيقة وكشف الزّيف عنها.

ومن ثمَّ علينا أن نميّز بين حقيقةِ: أنَّنا نحلم، وحقيقة: أنَّنا لا نصدّق أحلامنا (لا نصدق ما نراه يجري في أثناء نومنا، ولا نأخذ بما جاء فيه) ومع ذلك لا نستطيع أن ننكر حقيقة السؤال القائل:

لماذا لا نشك في أنَّنا نحلم، ونشك فيما نحلم به؟ أي: بما أنَّنا نحلم يقينًا وحقيقة فلماذا لا تكون أحلامنا هي الأخرى حقيقة ينبغي الأخذ بما يورد فيها؟

أقول: مع أنَّ ما يجري في أثناء النّوم حُلمًا حقيقيًّا فإنَّه لا يزيد عن كونه حقيقة نائم؛ ولأنَّه كذلك فالواهم بأنَّ الصَّواب في أحلامه صدقًا لا يزيد عن كونه لا زال نائمًا، ومن يأخذ بما حلم به فلن يجد أمامه بعد الصّحوة واليقظة إلّا سرابًا؛ ولهذا قبل أن يُوهم نفسه ويقنعها بذلك ينبغي أن يُنصح بحقيقة أحلامه؛ كي لا يسكب الماء الذي بين يديه بغاية أن يشرب من السَّرابِ ماءً.

وعليه: وجب كسر الوهم وهو الذي لا يكسر قيده إلَّا بتقديم الحقيقة؛ ولذا فالقيود تُفكّ ويتمّ التخلّص منها إذا ما أتيحت الفرص للعقل أنْ يفكِّر فيما يفكّر فيه في الوقت الذي هو فيه يفكّر، وفي المقابل لا إمكانيَّة لفكِّ قيود الوهم إذا ظل الإنسان خارج دائرة الانتباه العقلي الممكِّنة من التمييز بين ما يجب وما لا يجب مع فسحة الاختيار بعد التبيُّن.

ولأنَّه الوهم؛ فهو الغمّةُ التي إذا ما أزيحت عن الصّدور انفرجت كربها، وتيسَّرت أمورها تفاعلًا وتعاونًا من أجل ما يجب تجاه الآخر الذي لا تزاح الغمَّة عنه إلَّا بكسر قيد الوهم، وعودة الواهمين إلى عقولهم وعيًا؛ ولهذا يعد كسر قيد الوهم إفسادًا لمشاريع المفسدين، وإصلاحًا لأحوال الواهمين[18].

ولأنَّ قيد الوهم يجعل من الواهمين في غفلة من أمرهم بمعلومات مزوَّرة بقصد تحييدهم عن معرفة الحقيقة لصالح من أوهمهم؛ فهم في حاجة لمنقذ يتقبَّلهم كما هم من أجل الأخذ بهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه موضوعيًّا؛ إذ لا مجال للمنقذ أن ينحاز لغير الحقِّ وإحقاقه، ومن ثمَّ يمكّنهم من التخلُّص من وهم التبعيّة، والانقياد تجاه المجهول (الموهوم به).

ومع ذلك فالموهوم به يظل عند الواهِم حلمًا حتى ينكسر الوهم، أو يصبح الواهِمُ في خبر كان.

وعندما يصبح الواهِم وقد بلغ الحال به إلى قفل معلوماته بمعلومات خاطئة، فلا إمكانيّة لكسر وهمه إلَّا بتصحيح المعلومات الخاطئة التي تستغرق من الوقت وقتًا، ومع ذلك قد لا يفيق من وهمه إلَّا بعد دخوله معركة تكون الخسارة فيها كفيلة بإيقاظه.

ومع ذلك دائمًا فإنَّ لكل قاعدة استثناء؛ فبعض النَّاس قد دخل أكثر من معركة ولم يصحَ من قيد وهمِهِ حتى ورَّثه لأحفاده من بعده، ويا

[18] عقيل حسين عقيل، كسر الوهم، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م، ص 19 – 25.

ليته لم يورِّث؛ فمثل هذا التوريث يجعل من الجيل الثَّاني نسخة موهومة بقيود الجيل الأوَّل.

وعليه: فكما جاءت الأميَّة قيدًا كذلك جاء الوهم قيدًا؛ إذ كلٌّ منهما قد تأسّس على معلومات ومعارف فيها من الأخطاء ما يقيّد الحقائق، وفي المقابل وإن افترقت القيود واختلفت علمًا واستنارة ودراية؛ فإنَّ للعلمِ قيودَه، وللاستنارة قيودَها، وكذلك للدِّراية قيودها.

وهذا يدلُّ على تماثل قيد الحقيقة مع قيد الوهم وإنْ اختلفت الحقائق والأوهام، أي: مع أنَّ قيد الوهم يتماثل مع قيد الحقيقة من حيث إنَّهما قيدًا، فإنَّهما لا يتطابقان أبدًا؛ ذلك لأنَّ قيد الوهم يقود إلى الضلال، أمَّا قيد الحقيقة فيقود إلى الهداية، وهكذا تقود الأميَّة أهلها إلى الغفلة، وتقود الدِّراية أهلها إلى الصَّحوة والاستنارة.

قيدُ الوهمِ سرابًا:

مع أنَّ الوهمَ قيدٌ يُحفّز على ركوب المخاطر، فإنَّه لا إمكانيَّة للتحدّي به، فهو يوصلك راكبًا إلى منتصف الطّريق، ثمَّ يتركك هناك حافيًا؛ حيث لا وسيلة للمفرِّ من الوقوع في المصيدة، وفي حالة ما إذا حاولت الفرار فلن تجد طريقًا خاليًا من الأشواك، وعندما تصبح الطّرق والمنافذ مليئة بالأشواك يعرف الواهم إنَّها من تلك البذور التي بذرها قيد الوهم بين النَّاس.

وعندما يقع الواهم في الفخّ وتنكسر هيبته وسياسته يتخلّى عنه معظم الواهمين مصلحةً، بل يُلبسونه ما لم يكن قد لَبِسَهُ من قبل، وعندما يقع في الفخّ تلاحقه اللعنات، وكأنَّه لم يكن لهم رمزًا، ولم يكونوا له من قَبلُ سندًا.

ومن ثمَّ فرؤوس النّصر دائمًا كثيرة، أمَّا الهزيمة فلا رأس لها إلَّا قيد الوهم؛ ولهذا عندما تضعف الدَّولة وتنهزم لن تنال الاحترام حتى من أهلها، وهكذا حال القادة عندما يُهزمون يتخلّى عنهم الأقارب والأباعد، وبخاصّة إن كانوا ممن امتلكوا المال وأفسدوا، وهذه تتضح جليًّا في مجتمعات دولة العصبيَّة قيدًا.

وعندما تسقط الدّولة؛ إذ لا مؤسّسات، ولا نظم ولا قوانين، ولا رجالات أمن يعود البعض إلى قبائلهم التي بهتت صورتها من القدم؛ لينفخوا الرّوح فيها بغاية الاحتماء من الفوضى ودرء المخاطر، إلى أن تعود مؤسَّسات الدّولة لطبيعة عملها فيعودون، وفي الوقت ذاته تَبعث روابط التماسك روح العصبيّة قيدًا في أهل المدينة من أجل البقاء الآمن، وتفادي المخيف. وفي معظم الأحيان الرّؤوس التي تظهر في زمن الفوضى ليست برؤوس وطنيّة، ولا اجتماعيّة، بل في معظمها رؤوس سلب ونهب وإفساد لرأس مال الوطن.

ومع أنَّ لكل وهم ردة وهم فإنَّ منهاج الواهمين واحد وإن اختلفت الأساليب، فالسَّارق هو السَّارق، والكاذب هو الكاذب، والواهم هو الواهم، وهؤلاء في معظمهم في الدّول الفاسدة يفضّلون على غيرهم من

أهل القيم الحميدة، فيجندون من قبل أجهزة القمم السُّلطانيَّة، وفي المقابل لا ضحيّة لهؤلاء إلَّا الشُّعوب ومؤسّسات الدّول.

ومن ثمَّ تجد رجال الأمن السرِّي يكتبون التقارير في الكلّ، والكلّ عندما تتاح له الفرصة يكتب التقارير في رجال الأمن؛ ومن ثمَّ في زمن تحكّم الوهم في الدّولة قيدًا لا سقف لكتابة التقارير ونشر الوشايات، وزرع الفتن، واختلاق المؤامرات، ودسّ المكائد، ولكلٍّ وهمهُ؛ فالحاكم الواهم حتى وإن جاءته في أحد المواطنين وشاية كاذبة فلا يظنّها كذبًا، بل يعدُّها صادقة ما لم يثبت التحقيق بالإكراه بطلانها؛ ولهذا سُجن من سُجن ظلمًا، وقُتل من قُتل ظلمًا، وهاجر من هاجر ظلمًا، ومن هنا لا شيء يُطمئن قلب الحاكم كرهًا إلَّا المبايعات وإن كانت وهمًا، والمبايعة التي لا تجدَّد بمبايعات من بعدها تعدّ باطلة ولا يؤخذ بها، ولا ثقة في أهلها؛ ولذلك تسجّل المبايعات وتعرض على الشَّاشات المرئيّة أكثر من أيّ موضوع ولو كان المواطن في حاجة ماسّة إليه.

إذن: عندما يصبح هكذا فلا صفة للدّولة إلَّا (الوهم)، ولنفرِّق بين الدّولة الواهمة والدّولة غير الواهمة؛ ففي الدّولة غير الواهمة الدين ينتشر بالحُجَّة، وفي الدّولة الواهمة المذاهب تنتشر تحت مظلة السُّلطان الواهم، وهذا الأمر يجعل الصّراع داخل الدّولة على المنابر بين من يدعو لله، ومن يدعو للحاكم.

ولأنَّ الدّين السَّماوي من عند الله فبعض الحكَّام المسلمين يتخذونه مظلّة ليقال عنهم: إنَّهم أهل التقوى، وفي الوقت ذاته منهم من يتقدّم ليصلِّي بالمصلّين ولا علاقة له بتقوى الله، وفي هذا الشأن فإنَّ أخطر شيء يمكن الإشارة إليه أن يتحالف السُّلطان مع الفقيه، وحينها تلتحف السّياسة بالدّين، ويلتحف الدّين بالسّياسة؛ مما يجعل وهم السّياسة في الدين، ويجعل الدين في السّياسة وهمًا.

أي: يُصبح الفقيه داعية للسُّلطان، والسُّلطان داعية للفقيه، ومن بعدهما لا يبقى أحدُ المسئولين في الدّولة داعية للدين، وعلى هذا الغرار انقرض المذهب المعتزلي، وانتشر المذهب الأشعري بعد أن اعتنق صلاح الدّين الأيوبي المذهب الأشعري، وأصبح الأزهر الذي كان شيعيًّا إسماعيليًّا أيَّام الدّولة الفاطميّة سُنيًّا، ومن ثمَّ نشرت السُّلطة المذهب الأشعري، وتغيّر الفقهاء والمشايخ والقضاة، ثم ألغي تدريس المذهب الشيعي في المعاهد الدّينيَّة؛ ذلك لأنَّ دائمًا 90% من المشايخ والعلماء هم في الاتجاه المرضي للسُّلطان الحاكم، وفي المقابل السُّلطة تعمل على نيل رضاهم وعدم معاداتهم؛ لما لهم من أثر على العامَّة وبخاصَّة على المتتلمذين.

ولأجل أن يستمر السُّلطان أمنًا ولا تكون الفتنة بين المذاهب استوعبت الدّولة المملوكيَّة المذاهب الإسلاميّة الأربعة: المالكيّة، والحنيفيَّة، والحنبليّة، والشافعيَّة، كما أنَّها اهتمت بالصوفيَّة أيضًا، ومع ذلك فالتصالح

مبدأ مستمر بين السُّلطان والفقهاء، وهذا المبدأ مثلما جعل للوهم السُّلطاني حدًّا جعل لوهم الفقيه حدًّا وقيدًا.

ولأنَّ الوهم لا يفارق عقول الواهمين خوفًا أو طمعًا، فالعلاقة بين آراء السُّلطان والفقيه فيها من التوفيق ما فيها، وفيها من التلفيق ما فيها؛ إذ هناك من الأمور السُّلطانيّة ما لا إمكانيَّة لتمريرها ما لم تُجزْ من الفقيه ولو بشيء من المجاملة والتنازل وغض النَّظر، وكذلك هناك من الآراء الفقهية ما يعيقها قيدًا ما لم تُجزْ هي الأخرى من السُّلطان بشيء من المجاملة والتنازل، ومع أنَّ البعض لا يرى تنازلًا إلَّا عن قناعة فإنَّ تنازلات مثل هذه لا تتم إلَّا قيد وهمٍ.

إذن: هناك علاقة بين قيد الوهم وتقديم التنازلات؛ فتقديم التنازلات كرهًا له ردَّات فعل قاتلة في الزّمن غير المتوقّع؛ ولذا فالسُّلطان الذي أسَّس حكمه كرهًا سيكون واهمًا إن نام يومًا من دون أوهام مزعجة، أمَّا تقديم التنازلات ضرورة وإرادة فهي لا تخرج عن تبادل المصالح وسلامة البقاء الآمن، ومع ذلك فأمر الضرورة فيه من أثر القيد ما فيه.

ولنأخذ أنموذج التحالف الذي جرى بين محمد بن عبد الوهاب، ومحمد بن سعود 1158هـ - 1745م بغرض أخذ النصرة المتبادلة؛ حيث تنازل محمَّد بين عبد الوهاب عن السُّلطة السياسيَّة لمحمَّد بين سعود بغاية مفادها: لك السّمع والطَّاعة بشرط الدّفاع عني، وفي المقابل يصبح محمَّد بن سعود داعمًا لأفكار محمَّد ابن عبد الوهاب ومدافعًا عنه، كما

نصّ ميثاق الدرعيَّة على الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة التوحيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة البدع والخرافات[19].

إنَّه اتفاق من أجل البقاء، ومغالبة لمن لم يكن مشاركًا؛ ولهذا فمن لم يكن مشاركًا ولا مُبارِكًا سيظل خصمًا وإن اتبع تُقية يستظل بها أمام أعين المؤيدين والمناصرين.

ولهذا فالوهم وإن غيَّب الذاكرة يصعب عليه أنْ يُغيِّب العقل بالمطلق، أي: إذا غُيِّبَ ما يُوعِظ أو تؤخذ العبر منه أو يُذكِّر، فمن الصَّعب ألَّا يفكر العاقل في غَدهِ ولو كان وهمًا.

والعقل الذي قيَّد نفسه بإمكانه أن يفكّر في كيفيَّة فك القيد عنه، أي: العقل الذي أوهم نفسه بما أوهمها به، فهو في دائرة الممكن بإمكانه أن يكسر قيد الوهم عنها.

ولهذا فالعقل الذي لا يرى مرجعيَّة له إلَّا الماضي، ولا مستقبل له إلَّا بالعودة إليه فهو واهم، ومن ثمَّ فمن ينقلب على نظامٍ سياسي، أو اقتصادي ويستخدم المنهج والوسيلة نفسها، سيكون واهمًا إنْ ظنَّ أنَّه سينال رضا مَن أيَّده ساعة انقلابه على تلك الأفكار والأساليب التي أعطت مبرّرًا لتأييده منقلبًا.

---

[19] سليمان بن عبد الله، التوضيح عن توحيد الخلاق، الرياض: دار طيبة، 1404هـ، ص25-26.

وفي المقابل من ينقلب على نظامٍ سياسي أو اقتصادي ويلغي كلّ الجهود التي سبقته بناءً؛ فهو واهمٌ إنْ اعتقد أنَّه سيكون ناجحًا في تحقيق منجزات أمنيّة، أو سياسيّة، أو اقتصاديَّة، وهذا ما حدث بالتمام في العراق بعد الانقضاض على الرّئيس صدَّام حسين وإعدامه؛ حيث صدر قانون العزل السّياسي الذي به تمَّ القضاء على أهل الخبرة والدّراية والتجربة؛ فدُمرت إدارات الدَّولة، وتأخرت نهضة البلاد، وهكذا كان الحال في ليبيا بعد الثّورة على العقيد معمر القذافي والإطاحة بنظامه واستصدار قانون العزل السياسي، الذي هو الآخر كان سببًا في التصادم والاقتتال، والهيمنة والإقصاء لأهل الخبرة والدِّراية والتجربة؛ فكان الاقتتال بين بني الوطن شدّةً ولا رأفة فيها.

ومع أنَّ هذه من العيوب المترتبة على التغيير فإنَّ الكفّة المقابلة لكفّة العيوب قد رجحت بمميز كسر قيد الوهم وامتلاك الحريّة ولا مخاوف.

وإنَّ الذين لا يرضيهم التغيير وهمًا؛ كونهم ما زالوا يحلمون بعودة المجرَّب الذي سئمت الشّعوب منه فكرًا، ومنهجًا، وأسلوبًا، وفشلًا؛ فهم كمن يأمل عودة الميت من قبره، أي: إنَّهم سيظلون بين قيد الوهم إن لم يقلبوا الصَّفحة من أجل مستقبل مرضٍ يكونون فيه سادة.

ولأنَّه لا مستقبل لفرض الأمر الواقع، والتمسُّك بالمجرَّب فشلًا ووهمًا فلِمَ لا يُحسم الأمر عدلًا بانتخابات نزيهة بها تُفرز الأوراق بكلِّ نزاهة وشفافيَّة، مع أخذ الحيطة والحذر من أوهام المرشَّحين بدعايات فاقدة

للمصادق. فهم بما يدَّعونه قبل إجراء عمليَّة الانتخابات لا شكّ أنَّهم سيكونون مخالفين لما بعد الفوز وممارسة أعمال حَمْل المسئوليَّة الوطنيّة، وأكثر النَّاس ضحيّة للدّعايات الانتخابيَّة هم: الشَّباب، والمرأة اللذين سينكشف لهما الزيف وانعدام المصداقيّة من خلال بقاء العهود الزائفة وهمًا من بعد وهم؛ إذ لن تجد المرأة المكانة التي حلمت بها في تلك الدّعايات، ولن يجد الشّباب من يسأل عنهم، أو حتى يذكر اسمهم كما كانت تتصدّر الصّحف والإذاعات المسموعة والمرئيَّة.

والوهم مع أنَّه قيدٌ يتكرّر فإنَّه لا يفقد حيويَّته؛ ولهذا فالبعض يقع في المصيدة أكثر من مرّة، والوهم مثل لاعب الورق يمكن أن يخسر، ويخسر، ثمَّ يخسر وفي كل خسارة قيد الوهم لا يفارقه، بل يمدّه بالحيويَّة التي تعيده إلى المنزل ولا شيء لأبنائه بين يديه، ومع ذلك سيكون مترقّبًا للصّباح أو المساء بوهمِ العودة وحيويَّته إلى لعب الورق وهمًا.

هكذا هو قيد الوهم عندما يسيطر على المدركات الموجّهة للعقل، أو الفعل، أو السُّلوك، ويتّضح مثل هذا الوهم عندما يلتقي المتخالفون، أو المتقاتلون عن طريق الوسطاء فينكشف حال ذلك النّصر الموهوم به بلا مكانة على طاولة المفاوضات، بل الوهم وحده مطأطئ الرَّأس أمام الحقيقة (انتصار من لم يكن واهمًا وهزيمة الموهوم)، وفي هذا المشهد سيكون المنتصر في جلسة التفاوض هو من يُملي شروطًا، وفي المقابل سيكون المنهزم هو

من يقدّم التنازلات، ومع ذلك وعن غير وهمٍ لا استغراب أنْ يسقطك الخصم أرضًا، ولكن الاستغراب ألَّا تهمّ وتنهض.

وعندما يكون التفاوض بين السّياسيين وأهل الفضائل الخيّرة ستكون دلالات المفاهيم في أثناء التفاوض مختلفة؛ وذلك باختلاف الأغراض والغايات؛ فالسياسي في بعض الأوقات لا تهمه الأخلاق، بل ما يهمه كسب المواقف، ومن ثمَّ عندما يقال للسياسي: إنَّ فلانًا مُشركٌ أو كافرٌ ولا أخلاق له؛ سيقول: لا يهمني دينه ولا أخلاقه، بل ما يهمني أن يكون حليفًا لنا، وفي المقابل سيقول صاحب الفضائل قول الله تعالى: {وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ}[20].

أمَّا في حالة اعتدال كفَّتي التفاوض فسيكون الواهمُ هو مَن يبدأ بإعطاء التنازلات، فهو إنْ قَبِل بالنّزول درجة من على درجات السُّلّم يقابله المفاوض خصمًا بالصّعود درجتين على ذات السُّلّم؛ إذ في بدايات التفاوض لا وجود لحُسن النيَّة في قواميس المتخاصمين، وكل طرف متربّص بالآخر؛ مما يجعل النتيجة بينهما صفريَّة؛ ولن تحدث حركة موجبة بينهم في اتجاه الحلّ إلَّا إذا عرف كلّ منهم أنَّ الطّرف الآخر متمسّك بالحقيقة، فحينها يبدأ الميل والاقتراب من المركز (الحقيقة) وتصبح التفاهمات وحدها هي المخرج من التأزُّم.

[20] البقرة: 221.

ولأنَّ الحياة مدرسة فعلينا أن نتعلَّم فيها حتى ننجح، فنعرف كيف نتّفق، وكيف نختلف، وكيف نفكِّر، وكيف نواجه، وكيف نتحدَّى، وكيف نصنع أملًا من ورائه مأمول عظيم.

ولأنَّ زمن التنظيرات السياسيّة قد ولَّى فعلينا بالالتفات إلى عقولنا فهي قادرة على الإصلاح، وقادرة على تجاوز مرحلته وبلوغ الحلّ، فالذين كانت عقولهم تقاد بعقلِ مشيل عفلق، أصبحت عقولهم اليوم ممتلئة بمشاغل الحياة، ولا وقت لديهم للضياع، ومع أنَّ مشيل عفلق لم يعد على قيد الحياة فقيد الوهم ما زال حيًّا، ومن تعلّقت عقولهم بعبد النَّاصر فعبد النَّاصر قد مات، ومن تعلّقت عقولهم بأفكاره فمعطيات الحياة قد تغيَّرت، وكذلك الذين تعلَّقت عقولهم وقلوبهم بأفكار حسن البنا وسيّد قطب فإنَّهما قد ماتا، ولم تعد هناك تربة صالحة لإنبات أفكارهم قيدًا، ومن يوهم نفسه في هذا العصر بحرث الأرض وزراعتها بأفكارهما؛ فهو كمن يحرث في البحر، وهذا بالتمام حال الدّول التي تأسّست أو بُنيت بأفكار شخوص قد انتهت، بل سقطت كما سقط الاتحاد السوفيتي الذي تأسّس بعد ثورة 1917م على أفكار ماركس وهيجل ولينين، وهكذا لم يعد لأفكار ماو تسي تونج مكانًا في الصّين، وسقطت جماهيريَّة القذافي وطويت صفحاتها كما طويت من قبل صفحات المدينة الفاضلة والإمبراطوريات عبر التَّاريخ.

وعليه؛ فإنَّ دائرة التّاريخ دائمًا مملؤة بالمفاجئات والعجائب والمستغربات، فبالمقارنة بين ما تلعبه أمريكا من أدوار، وما كان يلعبه الاتحاد

السوفيتي وحفيدته اليوم (روسيا) من أدوار، لا يجعل البعض يتوقّع أنَّ الولايات المتحدة الأمريكيَّة هي التي أصبحت تتبنّى ثورات الشّعوب، وأنَّ الوريث الشّرعي للاتحاد السوفيتي (روسيا) هو المتخلّي عن هذا الدّور الذي كان أكبر متبنٍ له. أي: إنَّ الزّمن الكفيل بترويض الطُّغاة، سيكون بين النَّاس هو الكفيل باستبدال المواقف بين متوقّع وغير متوقّع.

ولذا عندما لا يسيطر الوهم على عقولنا فلا استغراب أن نرى مَن نراهم اليوم في صدارة المشهد السياسي الليبي خارجه بالتمام، وسنكون واهمين إن قلنا: سيخرجون منه بيسرٍ وسلامٍ، ومع ذلك عندما تضع المؤسّسة الأمنيّة أقدامها على أرض الدَّولة فلن يكون أمامها رؤوس العصابات ومساعديهم وأعوانهم مخيفين، ولن يكون لمن شيَّخ نفسه على من شيَّخ شيخًا، ولن يكون من تصرَّف في المال العام سلبًا ونهبًا وتحويلًا فالتًا من الملاحقة والعدالة.

وكلّ من يعتقد أنَّه يستطيع أن يتربّع على مقاعد القمم السُّلطانيَّة تحت أيّ عنوان من العناوين المحروقة؛ من قبليّة، وحزبيّة، وطائفيّة، وجهويّة؛ سيكون واهمًا؛ ذلك لأنَّ الوطن إن لم يحكمه مواطنوه، لن يكون وطنًا آمنًا ولا مستقرًّا.

ومن ثمَّ فإذا تعرّض الوطن لخلافات وصدامات بأيِّ علّة من العلل فلا مخرج آمن للمواطنين إلَّا أحد أمرين:

الأوَّل: المصالحة الوطنيَّة التي تستجيب لمطالب الجميع دون استثناء؛ فلا غالب ولا مغلوب، فمن قتل نفسًا بغير حقّ فحكم الله فيه مرضٍ، ومن هتك عرضًا؛ فالقصاص عدل لا مفرّ منه، ومن نهب مالًا فعليه ردّه، أو تقبّل العقاب القانوني، ومع ذلك؛ فللعفو والصّفح مكانة في قلوب النَّاس، والصُّلح خير، ولأنَّ الصّلح خير، فيجب أن يأتي الجميع لهذا الخير، وبخاصّة من يرى نفسه منتصرًا حتى لا تضيع الفرص الجامعة للشّمل الوطني.

الثَّاني: بناء الدّولة الوطنيَّة التي تستوعب الجميع، ولا تستثني أحدًا، إلّا من استثنى نفسه بفعل يجرّمه القانون؛ ولا إقصاء، ولا تهميش، ولا حرمان، ولا هيمنة، ولا عزل سياسي؛ ففي الدّولة الوطنيَّة تمارس الحقوق، وتؤدَّى الواجبات، وتحمل المسئوليَّات وفقًا للصلاحيَّات والاختصاصات الدستوريَّة والقانونيَّة[21].

وعليه: لقد ولَّى زمن التنظير واتباع الأوهام المقيدة للعقول، فالشّعوب اليوم لا تريد من يتحدّث لها عن الوطن، أو يتغنى به، بل تريد أن تعرف ماهيّة الوطن الذي ينبغي أن تتغنى به؛ فأخبار اليوم في الوطن العربي الذي أصبح أوطانًا مختلفة في مجملها أخبار وطنيَّة، ولكن عندما يخبرونك عن

[21] عقيل حسين عقيل، الهوية بين متوقع وغير متوقع، القاهرة: الزعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2014م، ص 381 – 382.

الوطن فهم بالتمام كمن يخبرك عن كتاب، وليس له ما يقدِّمه منه سوى الغلاف، ونسي أنَّ القُرَّاء يريدون كتابًا وليس غلافًا.

ولأنَّ كل شيء قابل لأنْ يتغيّر، فالواهمون قابلون للتغيير في حالة ما إذا قُمنا بكسر قيد أوهامهم بمعلومات صَائبة، ومع أنَّ الواهمين ليسوا بتلاميذ في فصولٍ دراسيّة، فإنَّهم يتعرَّفون على الحقائق عندما تسود الحجّة في وسائل الإعلام، وخُطب السّياسيين، ومنابر العلم والعبادة.

وبما أنَّ كل ما دون المعجز والمستحيل ليس بمطلقٍ، إذن فالوهم ليس بمطلق، ووفقًا لهذه القاعدة المعرفيّة فمن يرى: أنَّ الولايات المتحدة الأمريكيَّة قوّة وقيدها لا يكسر فليعم أنَّ الصين آتية؛ وأنَّه لا قوّة في دائرة الممكن إلّا وتكسر.

وبناء على ذلك أقول: إنَّ مفهوم الضّعف في مواجهة مفهوم القوّة يعني: مواجهة مكسورٍ مع قابل للكسر، أي: إنَّ المكسور هو الضَّعف أو من أصبح ضعيفًا، أمَّا الذي لم يُكسر بعد فهو القوي أو مَن لا زال على القوّة؛ ولهذا تصبح القاعدة العلميّة: لا ضعف إلَّا من بعد قوّة، ولا قوّة إلَّا من بعد ضعف.

وفي هذا الشأن أقول لمن يرى أنَّ أمريكا قوّة لا تُقهر: إنَّ عليك أن تتذكّر ما جرى وكُتب في صفحات التَّاريخ البعيد والقريب من سقوط الاتحاد السوفييتي الذي ظنَّ كثيرون لوقت قريب أنَّه لا ينكسر، ثم يعود ليقلّب الصفحات إلى الوراء ليعرف أنَّ الشَّمس أصبحت تغرب عن تلك

المملكة التي قالوا عن شمسها: لا تغيب، وأنَّ الإمبراطوريّة العثمانيَّة لم يبق منها إلّا تركيا، وأنّ التتار والمغول، والعرب في الأندلس لم يبق لهم شيء يذكر إلّا الأثر، ثمَّ عليه أن ينتبه إلى الصّين التي لم تتحرَّر من الاستعمار الياباني إلّا في التَّاريخ القريب 1945م وبعد دعم ومناصرة روسيَّة أمريكيَّة، وهي لا تعد إلّا من دول العالم الثَّالث، ولينظر إليها اليوم؛ إنَّها أصبحت الدَّولة العظمى المنافسة والمتحدية للولايات المتحدة الأمريكيّة.

ومن هنا فالضعيف إنْ هَمَّ من بعد سقوطٍ فبإمكانه أن ينهض، والقوي مهما عظمت قوّته ليس له من بعد القوّة إلّا الضّعف، حتى وإن حافظ على قوّته أعوامًا ودهورًا؛ وهكذا هي سُنن التدافع.

العقلُ قيدُ خوفٍ:

مع أنَّ العموم يظن أنَّ الخوف لا يكون إلَّا سالبًا فإنَّ أصحاب العقول المستنيرة لا يرونه إلَّا موجبًا، ولكنَّ السُّؤال الذي تطرحه الحيرة العقليَّة عند البعض من النَّاس يقول:

هل الخوف خوف عقلٍ، أم إنَّ الخوفَ خوفُ نفسٍ؟

مع أنَّ الإنسان كمفردة شخصيَّة لا يتعدَّد (عندما يكون شخصًا واحدًا)، فإنَّه شخصيَّة مركّبة وكأنَّه المتعدّد من (عقلٍ، ونفسٍ، وقلبٍ)، وقولنا: وكأنَّه متعدِّد يشير إلى أنَّه غير ذلك أبدًا، ومن ثمَّ فإنَّ العقل والقلب والنّفس لا تزيد عن كونها حلقات متداخلة لشخصيّة واحدة.

وبما أنَّ العقل حيويّة التمييز استقراءً واستنباطًا، فهل العقل في حاجة لرقيبٍ؟

مع أنَّ العقل كما سبق تعريفه وتبيانه هو حيويَّة التمييز؛ فإنَّه في دائرة الممكن يُمكِن أن يكون رقيبًا، ويُمكِن أن يكون في حاجة لرقيب، أي: في حالة ما إذا غلب الوهمُ عليه، فهو في حاجة لرقيبٍ يلفته إلى ما يجب، أمَّا إذا كان على الحقيقة دراية فهو ليس في حاجة لرقيبٍ.

ولمتسائل أن يتساءل:

بما أنَّ العقل رقيبٌ، ألا يكون قيدًا على رغبة النَّفس وشهواتها؟

نعم، إنَّه رقيب ضابط، ولكن السُّؤال هنا متعلِّق بالضوابط القيميّة وفقًا لكل عرف، ولكل دين، فالعقل يُمكِّن النَّفس من معرفة المحرم والمجرّم والمجاز، وما يجب الأخذ به وما يجب الانتهاء عنه، ويترك لها حريَّة الاختيار؛ ولذا فالعقل لا يمنع النَّفس عن شيء فيه مطلب شهوة، أو رغبة، بل الأديان السَّماويَّة، والأعراف الاجتماعيَّة، والدَّساتير والقوانين الوطنيَّة المنظمة للعلاقات هي التي تجيز أو لا تجيز، تبيح أو تحرِّم.

ولهذه العلل والقضايا يجد الإنسان نفسه بين درايةٍ وحيرةٍ، درايةٍ تُمكّنه من اتخاذ القرار وعيًا، وحيرةٍ تستوجب العودة إلى العقل بغاية استقراء المحيِّر.

وبين هذا وذاك ضمائر الأنفس تختلف مِن شخصٍ لآخر، مما يجعلها بين ضميرٍ ضابطٍ، وضميرٍ غائبٍ أو مغيّبٍ، ومن هنا تظهر الشخصيّات

مختلفة المزاج والذوق والرأي وفقًا للقيم والأخلاق العامَّة التي تشكّل الضّمير العام؛ ذلك أنَّ الضّمير العام هو المكوّن للأوامر والنواهي الرّافضة لقيود الأنا وقيود الذّات عندما تنحرفا أو تمتدّا إلى خارج حدودهما، وهو الضّابط العام القادر على كسر القيود التي تحاول أن تضعها الأنا على الذّات، أو تلك التي تود أن تضعها الذّات المنفلتة على الأنا عندما تكون الذّات معتدلة ومتّزنة، ومن هنا الصّدامات تحدث والمواجهات بين المستويات الآتية:

1 ـ صراع الضمير العام مع الأنا: عندما تفلت الأنا من ضوابط الذَّات التي تشكّل قيدًا عليها، يتدخّل الضمير العام كحكم بينهما بالنواهي والضوابط التي استمدّها من القيم المفضّلة، والتي تُعد إطارًا مرجعيًّا لا بدَّ وأن يتم الاحتكام إليه، وهذه الضوابط بالنسبة للأنا الواهمة تُعدّ هي الأخرى قيودًا إن لم تفك لا بدّ وأن يتم التحايل عليها.

2 ـ صراع الضمير العام مع الذَّات الجماعيَّة: الذَّات الضَّابطة للأنا في كثير من الأوقات هي في حالة صدام معه، ولأنَّها ذات جماعيَّة بشريَّة فهي الأخرى تحيد في بعض الأحيان عن ضوابط الضَّمير العام، والذي تعده الذّات سندًا لها عندما تكون في حالة صدام مع الأنا، وفي ذات الوقت تعده قيدًا عليها عندما تحاول الانفلات والانحراف؛ وذلك بمتابعته لها في كل أمر فيه فضيلة أو قيمة خيّرة؛ ولذا فكلّما قرّرت الانفلات منه يحدث الصّدام معها، ومثل هذا الحال كحال البرلمانات والمجالس النيابيّة

واللجان كجماعات شرعيَّة مختارة بإرادة، فهذه الجماعات كلّما حاولت الانفلات وجدت المجتمع الذي اختارها مترصّدًا بها الدّوائر مسائلًا ومحاسبًا؛ ولهذا تُعدّ هذه الجماعات الشرعيَّة في بعض الأحيان قيدًا على الحاكم، وهكذا باستمرار يعد المجتمع قيدًا عليها.

3 ـ صراع الضّمير العام مع الذّات المجتمعيَّة: كصراع الضمير القومي مع الضمير العالمي، أو الضمير العرقي مع الضمير الأممي، وهذا ما تودّه العولمة المفترضة، فهي تُريد أن تصوغ نُظم جديدة لضبط كل ضمير عام على مستوى كلِّ شعب أو مستوى كلِّ أمّة، وتود الالتزام بممارسة الحريَّة في ضوء حقوق الإنسان وضوابط المؤسّسات الدّوليَّة.

ومن خلال ما تطرحه العولمة من تنظيرات فإنَّها لا تَعدّ الضّمير العام للمجتمع المحلي أو القومي ضميرًا عامًّا، بل إنَّها تعده أمام الضمير العالمي حاله بالنسبة لها (للعولمة) كحالِ الأنا بالنسبة له (الضمير العام).

وإذا تساءل البعض: متى يحدث الصّدام بين الضّمير العام للشّعب والضّمير العالمي (ضمير حقوق الإنسان والحيوان)؟

تجيب العولمة عن ذلك بالنقاط الآتية:

أ ـ عندما لا يستوعب الأنا الآخر.

ب ـ عندما لا تمارس الديمقراطيّة بإرادة وبشفافيَّة.

ج ـ عندما لا تفتح الدّول أبوابها الحدوديَّة أمام التجارة العالميّة وتصبح ميادين ليمارس السّوق نشاطه بلا قيود.

د ـ عندما لا تكون الأديان والأعراف قيودًا على من لا يُشرِّعون بها.

هـ عندما لا يتم الحفاظ على البيئة.

ع ـ عندما يحاول البعض أن يَصُم آذانه عما تقوله المنظمات الدوليَّة.

و ـ عندما يحاول البعض الامتناع عن ارتداء قميص القيد الذّهبي (شروط وضوابط).

وعليه سيكون التدخل في الشئون الداخلية مباحًا ومتاحًا متى ما يتراء للذّات العالميَّة التي لم تكن مكوّنًا عامًّا، بمعني: أنَّها لم تكن مكوّنًا من الأديان والأعراف والثقافات العالمية المتنوّعة؛ ولأنَّها كذلك فلن يكون حُكمها مرضيًا للجميع، ومن هنا فإذا أردنا للذّات العالميَّة النجاح في التحكيم يجب أن يكون من ورائها ضميرًا عامًّا يتكوّن من القواسم المشتركة للأمم والشّعوب بمختلف معتقداتها وأعرافها وثقافاتها وما يكوّن خصوصيّاتها المتنوّعة[22].

ومع أنَّ الضَّمير لا يكون ضميرًا عامًّا إلَّا من بعد أنْ تتشرَّب النّفس تلك القيم والفضائل الموجّهة للرغبة العامَّة (رغبة الشَّعب أو المجتمع أو النَّاس بشكلٍ عام)، فإنَّه لا رقابة لضميرٍ بلا فطنة عقلٍ ودراية معرفة.

[22] أوهام الأنا (اللاهويَّة)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة 2022م، ص 76 – 83.

والضَّمير مع أنَّه قوّة ضابطة فإنَّه لن يكون على هذه المقدرة الضَّابطة بدون عقلٍ يُمكّن من التمييز والاختيار، ومن هنا فلا قوَّة ولا مقدرة لرقابة الضمير بلا قوّة العقل ومقدرته قيدًا.

ومن ثمَّ يصبح قيد العقل معرفةً هو القيدُ على النّفس ضميرًا؛ ذلك لأنَّ العقل لا يطمع ولا يخاف ولا يرتكبه الجبن، أمَّا النَّفس فهي التي بهذه الصّفات تتصف.

إذن: أين قيد العقل؟

قيد العقل أنَّه لا يضع خيارات أمام النفس إلَّا وهي المقيّدة عرفًا ودينًا وقيمًا وعلمًا، ومن هنا فإنَّه الشاهد على النّفس انضباطًا أو انفلاتًا.

أمَّا تقييد العقل فهو لا يمكن له أنْ يكون على أريحيّة التفكير علمًا ومنطقًا ومعرفة عندما تحوطه النّفس بتلك الهواجس المرعبة والمرهبة لكلٍّ من النّفس والقلب والعقل؛ ولذا فكما يقيد العقل النَّفس والقلب فإنَّهما القادران على تقييده حيطة وحذرًا؛ ولهذا دائمًا الحلقات المتداخلة بعضها يؤثِّر على بعضٍ.

قيدُ العقلِ بين خوفٍ وجبنٍ:

الخوف شعور حذري يجول في العقل تفكيرا تجاه المخيف؛ لتفاديه قبل أن يحدث أو يتحقّق، ولا يدركه إلّا عاقل يتدبّر أمره، ويفكّر في

مستقبل أفضل. إنّه توقّع حذري يستوجب اتقاء ما سيقع وقد يُحدث أمرًا غير مُرْضٍ ويُحقّق ألمًا.

ومن ثمَّ فالخوف ما ليس بجُبنٍ؛ فالجبن لا يكون ساكنًا إلّا في نفس من يعرف الحقيقة تجاه ما يجب ولا يقدم عليه، والخوف لا يكون إلّا في دائرة المتوقّع من أجل الإقدام عليه، أو الانتهاء عنه، دون تأخّر ولا جبن. إنَّه استشعار للمستقبل واستطلاع لِما قد يَحلّ به وقد يؤثّر تأثيرًا سالبًا على الفرد أو الجماعة أو المجتمع وما يمتلكون، وحتّى لا يحدث تُبْذل الجهود من قِبل مستشعريه وقايةً منه أو استبدالًا له، أو استغناءً عنه.

ومع أنَّ معظم معلومات العامَّة عن الخوف هي معلومات عن سالبٍ، فإنَّ حقيقة أمره لا تربطه بسالبٍ؛ فالعامّة على سبيل المثال: يخافون من الظُّلمة، ولكن هل يوجد شيء من مكوّنات الظُّلمة يخيف؟

بالتأكيد الظُّلمة لا تُخيف، ولكن الذي قد يفاجئك وأنت في زمن الظُّلمة قد يُلحق بِكَ ألما أو ضررًا؛ ولهذا ينبغي أنْ تكون عند الظُّلمة حذِرًا متيقّظًا، وإن لم تكن كذلك فقد تفاجأ بما هو غير متوقّع، وعندها قد تحدث الخسارة، ولكن بفضل الله علينا خَلق الخوف في أنفسنا وجعله قابلًا للاستشعار العقلي ليتّخذ الإنسان حذره ممّا يُخيف.

ولأنَّ الخوف موجب فكلّ عاقلٍ منّا يخاف المرض ولا يخاف الموت؛ ذلك أنَّ للمرض دواء؛ فكلّنا نسعى إلى بلوغه ونعمل من أجل الحصول

عليه؛ فتجرى التطعيمات الوقائيَّة للنَّاس عن المرض استباقًا؛ خوفًا من حدوثه، أمَّا الموت فلا دواء له؛ ولهذا لا أحد يفكّر في علاج الموت.

ولأنَّ الخوف يصنع المستقبل؛ فكلّنا يسعى لتوفير الماء قبل أن يلمَّ بنا العطش، ولأنَّنا نجوع؛ فنسعى لتأمين غذائنا قبل أن تلمّ بنا أزمة الغذاء وألم الجوع، ولأنَّنا نخاف من الوِحدة، فنسعى جميعًا من أجل تحسين علاقاتنا الاجتماعيّة مع الآخرين؛ أبوة وأخوة وعمومة وقرابة وجيرانًا كرامًا؛ كي لا يلمّ بنا ما يُخيف الأنفس، وحينها نتمكّن من بلوغ السّكينة وقلوبنا تطمئن.

ولأنَّنا نعرف ما تتركه السّرقة من ألمٍ؛ فنسعى للتَّأمين على ما نمتلكه قبل أنْ تحدث السّرقة؛ ولذا فمن لم يكن خائفًا فطنًا سيدفع ثمن غفلته ألمًا.

وهكذا بأسباب الخوف من الجهل تسعى النَّاس لنيل التعليم؛ ولذلك دائمًا من لا يخاف على مستقبله لا يسعى لتأمينه، ومن لم يرسم الإستراتيجيَّات والخطط لمستقبل أفضل فلن يجد لنفسه مكانة يتبوّؤها بين النَّاس، ولن يكون له مستقبل مقدّر، بل قد يجد نفسه على الرَّصيف جالسًا على قارعة الطريق متسوّلًا، أو سجينًا بين الجدران بأسباب فقدانه مشبعات الحاجة.

ولأنَّ الخوف نعمة من نعم الله علينا؛ فكلّ عاقل ليس له بدٌّ إلّا أنْ يُفكّر في كلّ ما من شأنه أن يجنّبه ما يخيف. والعاقل دائمًا يسعى لتأمين مستقبله من الكوارث، وهكذا كلّ مَن يخاف من العدوان يسعى لإعداد

العُدَّة قبل أن يحدث العدوان؛ وذلك لأجل إرهاب العدو ووضع حدّ له يقف عنده.

ولمتسائل أن يسأل:

الخوف من أجل ماذا؟

أقول:

من أجل السّلامة؛ ولذا فمن يحرص على الإقدام على ما يخيف من أجل التخلّص منه أو تجنُّبه بما يحقِّق السّكينة والأمن، سلم. وإلّا لماذا الآباء يخافون على أبنائهم؟

بطبيعة الحال خوف الآباء على أبنائهم هو من باب الحرص عليهم وتحقيق السّلامة لهم؛ ولذلك فمن خاف سَلِمَ، ومن لم يخف ألقى نفسه في التهلكة.

وعليه: فالعلاقة قويّة بين الخوف والتدبُّر والتفكّر والتذكّر، أي: لماذا الإنسان العاقل ينبغي عليه أن يتدبّر أمره، ويتذكّر ماضيه، ويفكّر في مستقبله؟

أقول:

يتدبّر حاله في الزَّمن الآن؛ من أجل أن يستمدّ القوّة التي بها يتمكّن من التذكّر والتفكّر، ويتذكّر الماضي؛ لكي يتدبّر حاضره عن بيّنة، ويعرف ما يجب أن يَقدِم عليه في مستقبله، أمَّا التفكّر فلا يكون إلّا في كلّ ما

من شأنه أن يحفّزه على صناعة المستقبل وبلوغ الغايات العظيمة ونيل المأمول.

وكما أنّ هناك علاقة موجبة بين الخوف والتدبّر والتفكّر والتذكّر؛ فكذلك هناك علاقة سالبة بين الخوف والوهم؛ فالوهم مجرد افتراضات لا علاقة لها بالواقّع (تخيُّل ليس إلّا)، أمَّا الخوف فلا وجود له إلّا مع واقع؛ ولهذا فالفرق كبير بين متخيلات الوهم وما يكشفه الخوف حقيقة. فالآباء في كثيرٍ من الأحيان يرسمون صور وهميّة في أذهان أبنائهم عن المجهول بالنسبة لهم بغرض السيطرة عليهم وجعلهم تابعين؛ فالغول الذي ليس له صورة؛ لعدم وجوده حقيقة، صورته لم تمحَ من أذهان الكثيرين من أبناء العالم المتخلّف.

ولأنّ للخوف علاقة وثيقة مع المستقبل؛ فالنّاس تخاف من مفاجِئات الزلازل؛ فتسعى في البحث لأجل أن تتمكّن من المعرفة العلميَّة التي تكشف مؤشرات الزلازل قبل وقوعها؛ تفاديًا لِما قد تحدثه من كوارث؛ ولذا فالمهندسون وبخاصَّة المعماريون يبحثون عن كيفيَّة إيجاد تصميم معماري يُسهم في تفادي الهزّات الأرضيّة أو الحدّ ممّا تؤدّي إليه من أضرار.

ولأنَّ الخوف فطري؛ فكلّ المخلوقات الحيوانيَّة حالها كحال الإنسان تخاف فطرةً لا تعلّمًا؛ فالخروف دون شكّ يخاف الذّئب، والذّئب يخاف الكلب، والكلب يخاف صاحبه ولا يخاف أعداءه، وهكذا الدّجاج يخاف الثّعالب، والثّعالب تخاف الصيّادين، ولكن دون تدبّر؛ فكلّ سلوك حيواني

يكون الحسم فيه في أثناء المواجهة للأقوى، ممّا يجعل للمفاجأة مكانة في إلحاق المغالبة بين حيوان وآخر.

والفرق بين الخوف على المستوى العاقل والمستوى الحيواني هو: أنَّ الإنسان يخاف فيتدبّر أمره مسبقًا؛ من أجل أن يتفادى المخاطر المقدّرة تقديرًا بحسبان؛ فالمسلم يعلم أنَّ أمامه مستقبلًا بين (سكينة وألم) وله أن يختار إرادة (جنّةً أم نارًا)؛ ولهذا فالمؤمن في حياته الدّنيا يتّقي الشرور ويبتعد عن ارتكاب المظالم؛ خوفًا من النّار وحبًّا في الجنّة، فيصلّي ويُزكّي ويصوم ويتّبع أمر الله ونهيه، ويسعى للإصلاح في الأرض وإعمارها وإفلاحها، أمَّا غيره من بني جنسه (الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم) فهم غافلون؛ ولهذا لم يعملوا على صناعة مستقبلهم البعيد وهم في الحياة الدنيا؛ ولذا فالخوف تفادٍ للفعل المؤلم سواء أكان هذا الفعل في الحياة الدّنيا أم عندما يكون مترتّبًا عقابًا في الحياة الآخرة على ما لم يُفعل في الحياة الدنيا، أو أنَّه فُعل عن غير طاعة لما يجب أن يُفعل إرادة.

ولأنَّ الخوف يُجنّب الألم؛ فالواعون في معظم الأحيان يتجنّبون لحظة الغضب بحكمةٍ وتدبّرٍ؛ بغرض إضاعة الفرصة على الغاضب وإعادته لرشده؛ ولذا فإنْ لم يتمّ تفادي الغضب لحظته تحدث المواجهة المؤلمة؛ فتتأزّم الأمور ويتصدّع البناء الأسري أو العشائري أو أيّ بناء اجتماعي وإنساني على مستوى الأفراد والجماعات وحتى الدّول.

وهكذا العالم المتقدّم دائمًا يَقدم على كلِّ شيء يمكن أن يُسهم في صناعة المستقبل الأفضل؛ فبالنسبة له كلّ شيء بحسابه؛ ومن هنا فنحن كلّ يوم نلاحظ أسعار النفط والذهب والفضة والعملات وأسعار الأسهم وما شابهها اقتصاديًّا تتغيّر وتتبدّل قيمها أحيانًا بتعديل رؤية في سياسة منظّمة الأوبك أو تصريح من رئيسها أو تصريح من أيّ رئيس له أثر فعّال على السَّاحة العالمية، أو إذا وقعت كارثة طبيعية أو غير طبيعية من حروب أو حتّى تهديدات باردة ترتفع بأسبابها أحيانًا جميع الأسعار عقاريّة ومالية وذهبيّة ونفطيّة وفضيّة وغيرها، وكلّ ذلك بأسباب الخوف التي تجعل الكلّ يأخذ حذره الذي به يتمكّن من مستقبلٍ آمنٍ.

وعليه: النَّاس يخافون في ظروف متشابهة أو ظروف مختلفة، وثمّة مخاوف تكون وهميّة لدى البعض إذا تكرّرت بانتظام في غياب مخاطر حقيقيّة، وهي مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بتجربة مخيفة نتج عنها رعب؛ فالذي يخاف من حيوان معيّن أو من أكثر من حيوان قد يكون هذا الخوف تأصّل في نفسه بعد أن تعرّض أو عرف ورأى من تعرّض لهجوم من حيوان معين، وهكذا لو وقع طفل في حفرة؛ فهو يخاف أيّ حفرة مشابهة، ممّا يجعله أكثر حذرًا في مستقبله من أجل السّلامة، وهذا النَّوع من الخوف هو خوف زائد على الفطرة، لأنَّه ناتج عن تجربة سبّبت أذى نفسيًّا أو ألمًا جسديًّا، جعلت صاحب هذه التجربة يخاف الأشياء التي مرَّت به وسبَّبت له ألمًا أو أذى نفسيًّا أو جسديًّا؛ فأصبح هذا الخوف نوعًا من المرض الذي

يجب علاجه، أمَّا الخوف الطّبيعي؛ فهو خوف فطري لدى جميع البشر، وهو صفة من صفاتهم اللازمة، والذي لا يخاف يكون مريضًا وجب علاجه.

إذن: الخوف صفة الخائف مثله مثل أيّ صفات أخرى يمكن أن يتّصف بها الإنسان، ومادام الخائف موصوفًا بما يمكن أن يتّصف من صفات ومن ضمنها الخوف؛ فإنَّ الصّفة التي اتّصف بها ـ أيّة صفة ـ إمَّا أن تكون صفة عارضة تزول بزوال مسبّبها، كاصفرار الوجه الذي يسببه المرض، أو أنَّها صفة لازمة خلقيّة كلون البشرة والشّعر والعينين، أو فطريَّة غريزيَّة من الصّفات الإنسانيَّة التي تنقسم إلى مادّية وإلى نفسيّة روحيّة، فالماديّة كالشعور بالجوع والعطش تزول بزوال مسبباتها بعد الأكل والشّرب وإن تكرّرت بانتهاء مشبعاتها ويكون المنبّه عليها داخليًّا يشغل حيزًا ماديًّا معيّنًا، وأمَّا النفسيّة التي لا تنفكّ عن الجسد ولا يعرف موطنها فيه، كالشّجاعة والجُبن، والكرم والبخل، والخوف والأمن، فتسكن في الحيّز الإنساني فطرة غريزيّة لا يعرف موطنها، وتفترق عن الصّفات الماديّة بأنَّها تستثار وتهدأ بمثيرات خارجيَّة وهي ملازمة في الحالين:

ـ حالة الاستثارة.

ـ حالة الهدوء.

فالكرم صفة مثل صفة الخوف؛ ذلك أنّ الذي يتّصف بها يكون كريمًا، ولا تظهر فيه صفة الكرم إلاّ بمثيرين اثنين:

الأوَّل: من يقوم الكريم بإكرامه.

الثَّاني: ما يقدّمه لمن يكرمه.

فإذا تلاشى كِلَا هذين المثيرين لهذه الصّفة أو أحدهما، فإنَّ صفة الكرم تهدأ في نفسه ولا تتلاشى؛ وذلك إمَّا لأنَّه لم يجد من يكرمه، أو أنَّه لا يجد شيئًا يُكرم به، وبهذا تبقى الصّفة قائمة في النّفس لحين استحضار مثيراتها ودوافعها من الأسباب.

والخوف أقرب ما يكون إلى صفة الكرم؛ فهو ليس من الصّفات المكتسبة؛ إذ لو كان الخوف مكتسبًا لَعمِلنا جاهدين على إيجاد نقائض أسبابه بطريقة الكسب، وتخلّصنا منه إلى النِّهاية.

وعليه: فالخوف صفة لازمة للخائف ولغيره؛ وذلك أنَّ الخائف تكون صفة الخوف لديه لازمة ظاهرة، وأمَّا غير الخائف فإنَّ صفة الخوف لديه لازمة باطنة، وهذا يعني أنَّ الخوف جزء من تكوين الإنسان النفسي كونه فطريًّا غريزيًّا، ومعلوم أنَّ الصّفات الفطريَّة التي ترتبط بالجانب النفسي لها علاقة مباشرة في حياة الإنسان؛ فإنْ أحسن الإنسان استخدامها أدّت وظيفتها الإيجابيَّة التي وجدت من أجلها، وإن كان غير ذلك فلا بدّ أن تكون النتائج عكسيّة.

ولما كان الخوف صفة فطريَّة لازمة فلا بدّ أن تتناسب هذه الصّفة مع مراحل الإنسان الحياتيّة وتنمو مع نموِّه بما يناسب التحذير من المخاطر

التي تحدق به في كلِّ مرحلة من مراحل حياته؛ إذ لولا الخوف الفطري لهلك كثير من النَّاس، وبخاصّة الأطفال الذين لم يصلوا إلى مرحلة التمييز العقلي، وهنا تظهر صفة الخوف نعمة ممّا أنعم الله –تعالى– بها على خلقه؛ ولذلك يكون الخوف عندهم نوعًا من الحواجز التي تردعهم عن المخاطر في تلافيهم إيّاها، وكلّما كبر الإنسان كبر خوفه بنموّ عقله خوفًا تحسبيًّا، لا بمعنى الجبن والتخاذل، وإنّما بمعنى: تقدير المخاطر التي تؤدّي إلى ضرر، ومعرفة المكاسب التي تؤدّي إلى النّفع، وعليه فخوف الإنسان خوفان:

1 . خوف من أن يدركه شيء.

2 . وخوف من أن يفوته شيء.

فكلّ إنسان يشغله حيّز من الخوف منذ ولادته؛ حيث يكمن هذا الخوف في نفسه وإن كان آمنًا، كما يشغل النّفس حيّز آخر من الأمن والأمان، ويدور صراع النفس مع الخوف إمَّا من أجل الحصول على الأمان أو المحافظة عليه حال وجوده؛ ومن هنا يجب أن يكون الخوف والأمن متوازيين لدى النّفس الإنسانيَّة، أو بعبارة أدق: يجب أن يكونا متعادلين، بحيث لا تستغني عن الخوف ولا تكتفي به، كما أنَّها لا تستغني عن الأمان ولا تكتفي به، ووجود الخوف الفطري المصاحب للأمان في النّفس الإنسانيَّة لا بمعنى الاصطحاب وإنّما بمعنى الكمون يعطي الإنسان فسحة للتفتيش عن الأسباب التي تهدئ مخاوفه حال الاستثارة من خلال إيجاد المنافذ الأمنيّة والاطمئنان إليها عندما تطغى على المخاوف؛ ولذا نرى أنَّ

الأمان يمنح فرصة أكبر للوقوف على مصادر الخوف؛ لأنَّه يمنح العقل انطلاقة التفكير بما يجب وما لا يجب، ومن هنا: يكون الأمان مستثيرًا للخوف في اللاوعي؛ فعندما يقف الإنسان من خلال اللاوعي على مصادر الخوف ومخاطر تلك المصادر؛ فيعود إلى وعيه ويبحث عن مثبتات الأمان من خلال خوفه؛ ولذلك فالنَّفس المطمئنَّة هي التي تتعادل لديها كفَّتا الأمن والخوف، الأمر الذي يمنحها الاتزان من خلال التوازن بين الجانبين؛ فإذا طغى الأمن على الخوف كان ذلك مدعاة للإفراط في الثّقة بالذات، وهنا مكمن الخطر، وإن طغى الخوف على الأمن أدّى ذلك إلى الانسحاب المفضي إلى الجُبن؛ ولذلك لابدّ لأيّ إنسان أن يمتلك قسطًا من الخوف يوازي أمنه ويحافظ عليه؛ ذلك أنَّ هذا القسط من الخوف الذي يعتري الإنسان، يكون نواة تبلور السَّكينة والأمن والطمأنينة ومصدرًا لها، فإذا تنكّر الإنسان لخوفه انطلقت نفسه على هواها، وهذا الانطلاق يؤدِّي إلى الانزلاق الذي لا يمكن التخلّص منه إلّا بالعودة إلى الخوف استشرافًا للمستقبل الآمن من أجل التخلّص من القلق والاضطراب، فإذا كان البعض يرى أنَّ أزمة الإنسان في الوقت الرّاهن في عصرنا هي الخوف، فإنَّنا نرى أنَّ عدم الخوف هو أزمة أكبر لما يُحدث من مخاطر، فلو كان الخوف قائمًا في النَّفس لوجب أن يكون هذا الخوف دافعًا للحصول على الأمن والسّكينة والطمأنينة من وسائلها الأمنيّة بأسبابها الخوفيّة؛ فإن تغلّب الخوف على الإنسان ولم يكن خوفًا متوازنًا يرافقه جانب أمني، يتحوّل هذا الإنسان إلى جبانٍ فقد اتزانه وقدرته على مواكبة الحياة، وبهذه الحال يكون

قد وصل إلى مرحلة الخوف من الخوف، والذي يحلّ المشكلة برمّتها هو حسن التعامل مع الخوف ضمن دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ ولذا وجب على الإنسان أن يواجه خوفه مواجهة عقليَّة؛ انطلاقًا من واقع يستشرف المستقبل بحيث يكون الخوف دافعًا للبحث عن منافذ الأمن ومسبّبًا للطمأنينة من خلال نظرة استشرافيَّة للمخاطر التي يمكن أن يأتي بها الخوف مستقبلًا، وبهذه النظرة في طريقة التعامل مع المخاوف يكون قد سخّر خوفه خدمة لمستقبله إن علم أنَّ الخوف صفة لم يتّصف بها إلّا من أجل الانطلاق نحو الأفضل.

فالخوف هو ذلك المحفّز الإيجابي للعاقل الذي يدفعه إلى التحصّن ضدّ الشّرور باستدعاء مفردات الخيرات في البحث عنها وتأمين سبلها ومسبّباتها؛ خوفًا من سيطرة مفردات الشرّ التي تحمل الألم والضّرر والأذى، وما يترتّب عليها من حزن وقهر وحرمان، تؤدّي إلى حسرة ولوعة وخسران.

ولما كان الخوف ملازمًا للإنسان غريزة وفطرة، فإنَّه لم يكن قبله، ولم يأتِ بعده، مما يعنى أنَّ صفة الخوف هي شعور يختصّ بالمستقبل؛ فيبدأ الإنسان من خلال خوفه بتحصين نفسه ضدّ المخاطر التي يدرك أنّها تؤدّي إلى الضرر أو الأذى وأحيانًا تصل إلى درجة الهلاك، ومن هنا: يبدأ الفرد في تحصين الذات ضدّ أشياء يخشاها بداية أثارت مخاوفه؛ فيتحصّن ضدّ الجهل والفقر والمرض والعدو، وضدّ العطش والجوع والحرّ والبرد، وأشياء أخرى تثير مخاوف الإنسان أكثر من أن تحصى، ولو لم يكن هناك خوف

من هذه الأشياء لما سعى الإنسان لتأمين مضاداتها التي تقف حائلة في وجه ما يثيره الخوف وما ينتاب الإنسان من هذه الإثارة؛ وبذلك يكون الخوف مدعاة لتأمين العلم والمال والدواء والقوّة، وكلّما ازداد خوف العاقل ازداد مع هذا الخوف تحسّبه لما يمكن أن يأتي من مخاطر، فيكيّف نفسه وفق المخاوف التي يتوقّعها بما يعد لها من عدّة للمواجهة، وهكذا يكون الخوف سببًا للأمان والأمن والطمأنينة.

وكلّما اتسعت دائرة الإنسان اتسعت مع ذلك دائرة المخاوف التي تحدق به؛ إذ إنَّ الامتداد الأسري للإنسان هو امتداد لمخاوفه؛ ذلك أنَّ خوف الأسرة أكبر من خوف الفرد؛ فالخوف على مستوى الأسرة يكون أوسع نطاقًا وأبعد مدى من مجال الفرد، ومن ثم فهو دافع أكبر وأوسع في استشراف مستقبل الأسرة وما يحيط بها من مخاطر وجب الخوف منها؛ تفاديًا لوقوعها.

وهكذا عندما تتّسع دائرة الفرد الإنسانيَّة يتّسع معها مجال مخاوفه، وبمن ثمَّ يجب أن يتّسع مع تلك المخاوف البدائل التي تقف في وجه تحقيق أهداف الخوف؛ ولذا نجد أنَّ ما تحقّقه الدّولة لا يحقّقه الفرد ولا تحقّقه الأسرة، لا بمعنى الإمكانات المادّيّة، ولكن بمعنى الإنجازات التحسُّبيّة الناتجة عن المخاوف ومسئوليّتها تجاه مواطنيها خوفًا عليهم.

الخوفُ قيدٌ ومعياره التَّوازن:

الخوف هو الوضع الطبيعي لدى الإنسان العاقل؛ فما من عاقلٍ إلّا وللخوف في نفسه مسكن ومكمن، وهذا السُّكون والكمون للخوف في النّفس الإنسانيّة صفة فطريّة لازمة للمخلوق العاقل تحافظ على اتزانه بين المخيفات التي تحمل المخاطر والمطمئنات التي تؤدّي إلى الاستقرار، وهذا التوازن في الوضع الطبيعي للخوف الكامن في النّفس يشكّل نقطة صفريَّة لا سالب فيها.

وعليه: الخوف عاطفة مثل بقيَّة العواطف التي تتّصف بها النّفس الإنسانيَّة، مثلها في ذلك مثل: الحبّ والرّحمة، والكره والبغضاء، والفرح والسّرور، والحزن والألم، وإن كان بعض العواطف مترتّبًا على البعض الآخر، أو أنَّ بعضها يكون مبعثًا للبعض الآخر في السّلب والإيجاب، ومعلوم أنَّ العواطف لها مثيراتها الدّاخليَّة والخارجيَّة، تدفعها هذه المثيرات إلى الظهور بصور شتى من الانفعالات التي تعبّر عنها الحركة والسّكون في النّطق والصّمت، والقول والفعل، والتصرّف والسّلوك، وردود الأفعال؛ فنلمس من خلالها حالة نفسيَّة معيّنة ترتبط آثارها بالعاطفة المثارة، ممّا يدفع العقل إلى إشغال الفكر في البحث دائمًا عن الأسباب التي تعود بالنَّفس إلى وضعها الطّبيعي: نقطة الصّفر لا سالب ولا موجب.

فالذي يَضحكُ لا يمكن أن يستمرّ ضحكه إلى ما لا نهاية، والحزين لا يستمرّ حزنه أيضًا، والمسرور لا بدّ أن يقف سروره عند حدٍّ، وهذا

ينسحب على الخوف الذي استنهضته المخاطر من مكمنه، وهو بدوره ينبّه العقل عليها وليس على حجمها؛ لأنّ تقدير حجمها والبحث عن حلول لها في المواجهة والصّدام، أو التّلافي والابتعاد، هو مهمّة العقل؛ كي يعود الخوف إلى مكمنه.

إنَّ الإنسان العاقل يحمل خوفه في نفسه، والذي يقول: إنَّه لا يخاف؛ إمَّا أنَّه غير عاقل وهو صادق في دعواه، وإمَّا أنَّه عاقل فأراد أن يخفي خوفه، ولكنّه برهن على وجوده بمعرفة الخوف؛ لأنَّه لو لم يعرف الخوف أصلًا لسأل عنه، وما كان جوابه أنَّه لا يخاف.

والذي يقول: إنَّه لا يخاف؛ هو لا يفهم الخوف؛ ذلك أنَّ الله تعالى أودع هذه العواطف في النّفس الإنسانيّة؛ رحمة بالإنسان من جهة، وهي من باب التقويم الأحسن من جهة ثانية؛ إذ لولا هذه العواطف –ومن ضمنها الخوف إن لم يكن في مقدمتها–لما استقرّت حياة الإنسان، وقبل ذلك نفسه التي يقوم عليها استقرار حياته؛ فلو قال إنسان: إنَّه لا يخاف وقدّمنا إليه النَّار، أو قدّمناه من النَّار، هل سيستمرّ إلى النهاية أم أنَّه سيتراجع وينسحب؟

لا شكّ أنَّه سيمتنع عن الاستمرار والمواجهة، فإن لم يقل: إنَّه تراجع خوفًا سيقول: إنَّه تراجع بسبب ما تحدثه النَّار من أذى.

فما الذي جعله يدرك هذا الأذى الذي تحدثه النّار ويعمل على تجنّبه؟

ربما يقول قائل: إنَّ العقل نبّه على خطر النّار بأنَّها مؤذية ومحرقة فامتنع عنها وابتعد، ونحن إلى هنا لا نخالفه في دعواه.

ولكن ما الذي جعل العقل يتنبّه إلى ذلك الخطر؟

هنا تنحصر الإجابة في اتجاه واحد لا سبيل إلى غيره؛ ذلك أنَّ النَّار التي استثارت الخوف من النّفس دفعت العقل إلى التفكير في حلٍّ للقضيّة؛ فأوعز العقل بالتراجع بداية، وصاحب العقل إن لم يتراجع وأقدم على النّار، فإنَّ ذلك لا يعبّر عن عدم الخوف، وإنّما يعبر عن خوفٍ من مخاطر أكبر ممّا تحدثه النّار، والذي لا يتراجع عن النّار بدافع الخوف منها والتجأ إليها، إنّما هو شعور بمخاطر أعظم ممّا تحدثه النّار ظنًّا منه بتقدير أقلّ الخطرين، وذلك كمن يدفعه خوفه من خطر وحش أو حيوان مفترس ويهرب أمامه من المواجهة وربّما لا يلتفت الوحش إليه؛ فإذا صادفه في أثناء هروبه بئر أو حفرة عميقة فقد يلقي نفسه بتلك الحفرة، وقد يؤدِّي ذلك إلى هلاكه، ولو بقي على حاله الأوّل ربمّا لا يقربه الوحش ولا يفترسه، ولو أنّه واجه تلك الحفرة دون الوحش المفترس لما ألقى نفسه بها؛ لأنّه يخاف من خطر الإلقاء أن تكسر يده أو رجله أو أن يهلك، ولكن الخوف الذي نبّه على الخطر دفع العقل إلى طرح البدائل والموازنة بين أنواع مخاطر المخاوف وفوّض الإرادة بتنفيذ القرار، فكان اختيار ما هو متوقّع أن يكون أقلّ خطرًا بدافع الخوف، وربّما يكون أكثر خطرًا وغير متوقّع بدافع الخوف أيضًا.

ولو كان هذا الموقف واجه إنسانًا غير عاقلٍ على سبيل الافتراض فإنّ الخوف نفسه هو الذي يدفعه إلى تلافي المخاطر؛ فالفطرة الخوفيَّة التي كانت تتعامل مع العقل، انتقل تعاملها إلى الغريزة حال غياب العقل، وهنا لا يتساوى الخوف من المخاطر بين العاقل وغير العاقل؛ لأنَّ غير العاقل حال غياب العقل يكون تأثير الخوف على نفسه أقلّ؛ وذلك لعدم تحفيز العقل المقدّر لحجم الخطر، ومن ثم لا تتساوى لديهما البدائل في إيجاد الحلول التي تدفع المخاطر أو تمنعها، لثبوت العقل عند الأوّل وغيابه عند الثَّاني، وبغياب العقل تحلّ محلّه الغريزة القائمة على ردّة الفعل؛ فتعمل على التجريب لا من أجل اكتساب تجربة وزيادة خبرة، وإنّما تجريب ظنّي بدافع الخوف الغريزي الذي حلّ محلّ الخوف الفطري المرتبط بعلاقة وطيدة مع العقل.

إنَّ المعرفة التجريبيّة لدى غير العقلاء لا يمكن أن تكتسب، وإنّما هي محاولة قد تخطيء وقد تصيب؛ لأنّها بالنسبة له ظنيّة، وبالنسبة للعقلاء هي افتراضات خارج دائرة التجريب العاقلة؛ كونها لا تمنح استدلالًا يقينيًّا لمنبّهات الخوف الموصلة إلى النجاة؛ لأنّ إشارات التنبيه الخوفيَّة تذهب بداية إلى العقل الذي يتعامل مع ما ورد إليه من معلومات يعرضها على ما اختزن في الذَّاكرة ليجد مضاداتها ومتوافقاتها ويعلم سالبها وموجبها، ثم يتّخذ قراره الذي يدفعه إلى الإرادة، وهذه العمليّة لا تتمّ إلَّا بسلامة العقل الذي يستقبل المعلومات أو الإشارات ويرسلها بعد معالجتها، ولا ينتهي

دوره بعد أن يدفع بها إلى الإرادة، وإنّما يتعاظم دوره بعد ذلك في توجيهِ الإرادةِ أيضًا؛ فغير العاقل إن كانت أعصابه من خطوط الاستقبال والتوجيه التي تتسلم الإشارات والمعلومات سليمة؛ فإنّ ذلك لا يغني عنه شيئًا بغياب العقل؛ فالمنبهات على الخوف وإن أثّرت على الأعصاب فهي إمَّا أنَّها لا توصل الإحساس إلى الدّماغ، أو أنَّ الدّماغ لا يتعامل معها لغياب العقل، وهنا يفقد غير العاقل التوجيه المركزي في التعامل مع مخاطر الخوف ويلجأ بالغريزة إلى الاستثناء القائم على ردّة الفعل ما يترتّب عليه غياب تقدير النتائج؛ وذلك أنَّه:

. فقد القرار السَّليم الذي كان يتّخذه العقل في قياس حجم المخاطر أوّلًا، ومن ثمّ طرح البدائل والحلول التي تواجه الحدث.

. فقد الإرادة التي كانت تبعث في الأعصاب ما تبعثه المؤثّرات في التعامل مع الحدث لحظة استنهاض الخوف للمخاطر، وكيفيّة التعامل معها بعد تلقي القرار من العقل وتفويضها في التعامل مع المخاطر.

ولما كان الخوف من العواطف اللازمة للإنسان ويسكن في نفسه؛ فكان ذلك مؤشّر النقطة الصّفريّة، وهذا الخوف كامن في النفس عند نقطة الصّفر التي يمكن أن نعدها بداية الموجب كون الصّفر يدخل ضمن الأعداد، وهذا يعني أنَّ وجود الخوف في نقطة الصّفر هو بحدِّ ذاته موجب لوجوده.

إنَّ الخوف يجعل النّفس الإنسانيّة والإنسان بكلّيته عند استثارة المخاطر للخوف في نفسه يتأرجح بين السّالب والموجب إلى أن يتمّ الاختيار من العقل ودفع القرار إلى الإرادة؛ فإن اتجهت الإرادة إلى التوجس والحذر والخشية؛ فتكون قد سلكت مسلكًا موجبًا انطلاقًا من الصّفر صاعدًا، وإن اتجهت إلى التخاذل والجُبن، فقد نحت منحى سالبًا انطلاقًا من الصّفر نزولًا.

أمَّا الجبن: فهو تنبيه سالب من الخوف على عدم الإقدام على الفعل، أيًّا كان هذا الفعل في النجدة والمروءة، أم في البيع والشِّراء، أم في الحرب والقتال، أم في الجدال والخصام، بحيث يستنهض الخوف من النّفس الإنسانيّة أدنى درجة من الانهزام وعدم مواجهة المواقف، سواء أكان الجبان منفردًا أم معه صحبة ليلًا أم نهارًا؛ لما تظنّه نفسه أنّه يترتّب على الموقف الذي يفترض أن يكون مخاطر تؤدّي إلى التهلكة وقد يكون الأمر ليس كذلك.

فهذه القضيَّة مرتبطة بالجانب النفسي الذي فرض نفسه على العقل بطغيان العاطفة التي تصوّر للنّفس أشياء غير واقعيّة وأحيانًا غير منطقيّة، وتبدأ النّفس بتحويل هذه التصوّرات إلى إشارات معلوماتيّة مصدرها التهيّؤات النفسيّة الإنسانيّة وتخيلاتها؛ فتزوّد العقل بمعلومات خاطئة عن حقائق طبيعيّة نتيجة اضطراب نفسي يجيّش العاطفة بحيث تطغى العاطفة على العقل، فينصاع العقل إلى روافد النّفس بما تحمل من معلومات يختزنها

العقل في الذّاكرة، ويتخذ قراراته بناء على تلك المعلومات السلبيّة؛ فتكون النتيجة الطبيعيّة أن تنصاع الإرادة للأوامر والقرارات العقليّة في اتخاذ الموقف القائم على الحكم النّفسي وليس على الاستنتاج العقلي.

إنَّ الوضع الطبيعي الذي يفترض أن تكون عليه النّفس هو تقبُّل الواقع والتعامل معه وفق المساعدات العقليّة السليمة في مواجهة حقائق الأمور خيرها وشرّها ونفعها وضرّها؛ ذلك أنَّ كلّ أمر من الأمور له أدواته الخاصّة به في التعامل من النّفس والعقل والجوارح، وعندما تكون النّفس مطمئنة والعقل سليمًا فإنّ الإنسان يتعامل مع المخاطر التي ينبّه عليها الخوف في هدوء وسكينة وارتياح وطمأنينة، ولا يقف أثرها عند هذا الحدّ لدى البعض، بل ربّما تمدّه بقوّة إضافيّة تدفعه إلى الأمام وتحول بينه وبين الانسحاب؛ فتجعله يكرّ ولا يفرّ، يقدم ولا يحجم، بحيث لا يبالي أوقع على الخطر أم وقع الخطر عليه، وهنا ينصرف العقل باطمئنان النّفس إلى الطريقة والأسلوب والأداة التي يتعامل بها مع الخطر، غير أنَّ الانسحاب المفضي إلى الجُبن بتنبيه الخوف السَّالب القائم على انعكاسات نفسيَّة سلبيَّة، يؤدِّي إلى الانسحاب والهزيمة أمام الخطر الدَّاهم، وهذا ما نجده عند قوم موسى –صلّى الله عليه وسلّم– عندما دعاهم إلى دخول الأرض المقدسة فقال لهم: {يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا

تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ}[23]

إنّ موسى –عليه الصّلاة والسّلام– يعلم أنَّ الجُبن متمكّن في نفوسهم؛ ولذلك أراد أن ينتزعه من نفوسهم قبل أن يسمع جوابهم بدليل قوله: {وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ}، ومع ذلك فقد صدّقوا موسى بظنّه بهم أنَّ هذه الأرض فيها قوم جبّارون؛ فهذا الجواب ينمّ عن نفسيّة منهارة سكنها الجُبن عن طريق السَّماع وليس من قبيل التجربة، ومع العلم أنَّ رجلين منهم يخافان الله أوضحا لهم سبل المسالك التي تفضي بهم إلى تجاوز الخوف السّالب وتحويله عن طريق الأسباب إلى خوف موجب، لم يدفعهم ذلك إلى إطاعة موسى –صلّى الله عليه وسلّم، وخوف الرّجلين يختلف تمامًا عن خوف بقيّة قوم موسى؛ مصداقًا لقوله تعالى: {قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[24].

فهذان اللذان يخافان الله قد أنعم الله عليهما بهذا الخوف الموجب الذي يفترض أن يكون قائمًا في نفوسهم جميعًا، إلّا أنَّ خوفهم من الجبّارين جعل الجُبن يتمكَّن منهم؛ فدفعهم إلى الانسحاب والهزيمة والعصيان، ولم يلتفتوا إلى نصيحة الرّجلين، ولم يناقشوهما؛ لأنَّه ليس لديهم أدنى استعداد

[23] – المائدة: 21، 22.

[24] – المائدة: 23.

للموقف؛ بسبب الجبن الذي يتملّكهم؛ لذلك أرادوا أن يصرفوا أنفسهم عن هذا الأمر وعدم الخوض فيه: {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}[25].

فهذا التأبيد الذي تمسّكوا به تُجاه خالقهم وتُجاه نبيّهم بما قذف الخوف من جبن في قلوبهم، كان سببًا في أن تكون الأرض المقدَّسة محرّمة عليهم، ويتيهوا في الأرض أربعين سنة نتيجة لذلك.

إنَّ الرّجلين من الذين يخافون قد أنعم الله عليهما، وهذه النعمة لا بدّ أنَّ سببها التّقوى؛ فكان خوفهما مختلفًا؛ وبعبارة أدق: إنَّ منبّهات خوفهما كانت مغايرة لمنبّهات الخوف عند قومهما؛ ولذا فكلٌّ ينظر إلى منبّهات خوفه وعمل على تلافي خطرها، فكان التلازم والترابط بين التقوى والخوف من الله، أمّا بقيّة القوم فلم يتزودوا بزاد التقوى؛ فكان خوفهم من مخاطر الجبّارين؛ ولذا فإنَّ هذا النَّوع من الخوف المفضي إلى الجُبن يترتّب عليه أشياء أخرى من الألم النّفسي الذي ينتج عنه الغم والهم والحزن، وهذه تؤدّي إلى اضطرابات نفسية؛ حيث إنَّ نسبة كبيرة من أسباب الأمراض الخطيرة ترجع إلى القلق النّفسي والهموم والأحزان التي يسببها الخوف السّلبي، والجُبن يترتّب عليه عجز وكسل يؤدِّيان إلى زيادة الهم والحزن، ثم إنَّ الجُبن يترتّب عليه مضارّ كثيرة؛ فالجبان مترقب لا يهدأ باله ولا تسكن نفسه؛ لأنَّه يخاف من نفسه ويخاف على نفسه، ويعيش في الخوف الذي

[25] – المائدة: 24.

يصبح له كابوسًا يطارده، فيحدث له الهمّ والحزن، وكذلك الجُبن في الإنفاق؛ إذ إنَّ الذي يُمسك ماله لخوفه عليه من الضياع والهلاك تراه فقيرًا، فإذا أنفق شيئًا أو أُجبر عليه؛ فقد تلزمه الهموم ويتراكم عليه الخوف؛ ولذا نرى كثيرًا من النَّاس فقراء وهم أصحاب مال، وما ذلك إلَّا خشية الإنفاق.

إنَّ الجُبنَ شرُّ ما يتّصف به الإنسان من صفة يدفعه خوفه إلى التمسّك به؛ ولذا فإنَّ النّبي –صلّى الله عليه وسلّم– كان يكثر من الاستعاذة بالله –تعالى– من هذه الصّفة لما يترتّب عليها من مضارّ؛ مصداقًا لقوله صلّى الله عليه وسلّم: "اللهمّ إنِّي أعوذ بك من الهمّ والحزن والعجز والكسل والجُبن والبُخل وضلع الدين وغلبة الرجال"[26]، وعليه لو كان للخوف شيء من هذه الصّفات لكان الرّسول –عليه الصّلاة والسّلام– قد استعاذ منه كما استعاذ من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل[27].

قيدُ الدِّراية:

الدِّراية لا تكون استنارةً إلَّا من بعد الإلمام التَّام بما ينبغي الإلمام به، وأنَّ المدرى به سيكون قيدًا على من التزم به أوامر ونواهٍ؛ ولذا فالدّراية رفعة

[26] – مسند أحمد، ج26، ص484.

[27] عقيل حسين عقيل الخوف وآفاق المستقبل، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، ص 23 – 74.

عن كلِّ ما من شأنه أنْ يؤدّي إلى الانحدار والسُّفليَّة؛ وذلك بغاية بلوغ ما يُمكِّن من إحداث النُّقلة، التي:

. تغذي الرّوح نشوة.

. تطمئن النّفس سكينة.

. تخاطب العقل دراية.

. ترضي القلب يقينًا.

. تشبع البدن حاجة.

. تزيد الذّوق رفعةً وارتقاءً.

وعليه: فإنَّ الحياة الدُّنيا وبما فيها من دراية عقليَّة، فإنَّها إذا ما قورنت بتلك الحياة العليا لا تزيد عن كونها حياة الحاجات المنقوصة، وحياة الفتن والعداوات التي بدأت أوَّل ما بدأت بين الأخوين (ابني آدم)، ثمّ اتّسعت وتكاثرت مع التكاثر فأصبح الصّدام والاقتتال انحدارًا بين بعض النَّاس، وفي المقابل يرتقي بعضهم رفعة؛ فآدم الذي خسر ذلك الموقع الرّفيع، أصبح يأمل العودة إليه دراية؛ ولذلك فقد سعى استغفارًا وتوبة أهَّلته لأن يكون نبيًّا يُنبئ بما عُلّم به من قِبل خالقه؛ ومن ثمّ فلا مكان له بعد النبأ العظيم إلّا الجنّة، التي لا تبلغ ارتقاء إلّا بالعمل الصّالح عقلًا ودراية.

ولذلك أصبح العمل ارتقاءً أمل المصلحين السّاعين إلى الكسب الحلال بلا حدود؛ ولذا فالسّاعون ارتقاء مهما بلغوا من المراتب والقمم

فهم يأملون مراتب عظيمة من بعدها قمّة أعظم؛ ولهذا وجب اتقان العمل إخلاصًا ودرايةً، حتى الارتقاء بالأرض الدّنيا ورتقها في السّماء جنّة.

عليه: وجب العمل الممكِّن دراية من بلوغ الأحسن والأرقى، شريطة ألَّا يكون التحسّن على حساب إشباع حاجات الغير، بل ينبغي أن يكون العمل تُرسًا من تروس عجلة الحياة العامّة؛ ذلك لأنَّ الارتقاء الممكّن من العمل المرضي لا يُمكن أن يتحقّق والغير يتألم؛ ولذلك فالعمل وفقًا لأهداف الحياة ينبغي أن يكون من ورائه غرض خاصّ وهو: إحداث النُّقلة عن درايةٍ، وغرض عام يُحفِّز الآخرين ويدفعهم للرّفعة، وإلّا فألم الغير لن يفسح الطّريق أمام من يسعى إلى الارتقاء غاية وهو لا يدري.

ومن هنا فإنَّ بني آدم في دائرة الممكن هم بين متوقَّع الارتقاء عقلًا ودراية، ومتوقَّع الدونيَّة غفلة وشهوة، ومن جهة أخرى هم يتبدّلون؛ إذ لا ثوابت؛ فمنهم من يبقى على الارتقاء، ومنهم من يتخلّى عنه قيدًا، ومنهم من نراه في دونيَّة، ولكن من بعدها يبلغ القمم ارتقاء؛ ولذلك ينبغي العمل مع بني آدم من حيث هم، من أجل الارتقاء بهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه دراية واستنارة.

ومن ثمّ ينبغي على بني آدم عند رسم السّياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضًا، من ورائه أغراض تحقّق لهم المكانة والرّفعة، أي: تحقّق لهم المكانة الشّخصيَّة قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميَّة فضيلةً، وتحقّق لهم

العيش السعيد قيمةً، ولكن إن لم يعملوا ويفعلوا فلا شيء لهم إلّا البقاء على الرّصيف بين حاجة وشُبهة، وهنا يكمن الانحدار قيدًا.

إذن: فعلى العقل الآدمي درايةً أنْ يعي بإمكانيَّة بلوغ السّماء ارتقاء كلّما عمل وفقًا لأهداف تنجز، وأغراض تتحقّق، وغايات يتمّ بلوغها، ومأمولات يتم نيلها، ولكن إن أحسّ العقل وهو منفردٌ بشيءٍ من التّعب، فعليه بوضع اليدين مع الأيدي صعودًا وارتقاء.

فالارتقاء عقلًا ودراية مثل المعمار ينبغي أن يُبنى لبنة فوق لبنة (قيمة فوق قيمة، وفكرة من بعد فكرة، وهدف فوق هدف، وغرض فوق غرض، وغاية من فوقها غاية، وأمل من بعده مأمول أعظم)، ولكن في المقابل هناك من يهدم المعمار رأسًا على عقب، وهناك من يهدّه لبنة بعد لبنة، فالصّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناة رُقيًّا، والهادمين له انحدارًا؛ ولأنَّ الخالق خلقنا على الاختلاف فلا بدَّ أن نظل عليه مختلفين: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[28]، ولهذا فالصّراع والصّدام بين أهل العقول والدِّراية وبين أهل الشّهوة والتمدُّد على حساب الغير سيظل قيدًا ساريًا بين حقٍّ وباطلٍ.

ولذا فإنَّ الاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين قيمة خيّرة، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات

[28] هود: 118، 119.

الآخرين؛ ولذلك يجب أن تحدّد الأهداف والأغراض والغايات بعيدًا عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي عقلًا ودرايةً أن تحدّد الأهداف وفقًا لما يجمع شمل المتفرّقين خِصامًا، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلًا وارتقاءً.

ومن أجل الارتقاء قمّة ينبغي الابتعاد عمّا يؤدّي إلى الاقتتال والفتن، فالاقتتال والفتن قيود وضياع فرصة، والزّمن لا يعطي الفرصة مرّتين، ومن ثمَّ يجب عدم إضاعة الفرص كلّما سنحت الظّروف دراية واستنارة، ومن يضيّعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم، فالنّدم قيد وعندما تضيع الفرص قد يؤدّي بأصحابه إلى الهاوية، ولكن إن كانت الفرص لا زالت سانحة فقيد النّدم دراية يؤدّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي: متى ما غلبت الشَّهوة عقل الإنسان انحدر غفلة، ومتى ما قوي عقله دراية ارتقاء تذكّر، فاتّعظ واعتبر، ومتى ما تدبّر عمل وأنتج، ومتى ما فكّر درايةً حدّد أهدافًا من ورائها أغراض، وغاية من ورائها مأمول يتم نيله.

إذن: وجب التدبُّر دراية بما يبعد بني آدم عن الجلوس على رصيف المتسوّلين، فالتسوّل يؤخّر أصحابه عن الالتحاق بأهل العقول والدّراية، وفي المقابل لا ينبغي أن تجرّ العاطفة أصحابها إلى دعم مواقف المتسوّلين (الذين يتخذون التسوّل مصدرًا للعيش)، بل العقل المتدبّر لأمره يجب أن يدفع أصحابه إلى ما يُمكّن المتسوّلين من المشاركة في العمل المنتج، الذي

يحفّزهم على تنمية قدراتهم وتوجيهها وفقًا لما يحقّق لهم الارتقاء نهضة ورفعة، فيخلّصهم من التسوّل إرادةً وعملًا، وكذلك لا ينبغي أن يضع بنو آدم أنفسهم في مواقف الاستعطاف، ولا ينبغي لهم الأخذ بالعاطفة فيما يؤسّس إلى ترسيخ الفضائل والقيم وبناء الدّولة، فرجالات الدّولة كلّما أخذتهم العاطفة أخّرتهم عن إنجاز الأهداف السّامية، والأغراض الرّفيعة، والغايات العظيمة، والمأمولات قمّةً وارتقاءً.

فرجالات الدّولة عقلًا ودراية هم من لا تأخذهم العصبيّة؛ ذلك لأنَّ العصبيّة قيدٌ ومقبرة للذين لا يعلمون، فرجالات الدّولة دراية وارتقاء كلّما حكموا عدلوا، وكلّما قالوا صدقوا، وكلّما عاهدوا أوفوا، وكلّما كَبِروا تواضعوا، أمَّا المدّعون لذلك فهم مع كلّ هبَّة ريح يميلون، وهنا تكمن علّتهم وسُفليَّة الدَّولة ودونيَّتها.

فقيام الدّولة ورفعتها ارتقاء لا يكون إلَّا عن عقلٍ ودرايةٍ؛ ولهذا ينبغي أن يتم استهداف رجالات بعينهم لإدارتها وفقًا لما هم عليه من مكانة ودراية وخبرة وتجربة، ومع ذلك ينبغي أن يتم إخضاعهم للتقييم قبل أن يتمّ اختيارهم إلى مناصب إداراتها، وكذلك فهم بعد الاختيار يقوّمون كلّما حادوا عن الدّراية قيمًا وخُلقًا؛ وذلك أوَّلًا: بهدف إعادتهم إليها ارتقاءً، وثانيًا: محاسبة من انحرف منهم عن قيم حَمْل المسئوليَّة التي تم اختيارهم إليها إرادة.

ومن ثمّ فمن يرى نفسه رجل دولة فعليه باختبار نفسه وتقويمها قبل أن يُختبر ويقوّم من قِبل الغير.

فبنو آدم سواء أكانوا رجالات دولة، أم مواطنين كرام يدركون أنَّ السّبيل إلى النّجاح هو الارتقاء عن كلّ شيء يؤلم، أو يؤزّم العلاقات، أو يؤدّي إلى تفكّك اللحمة الاجتماعيَّة، أو الوطنيَّة، أو الإنسانيَّة، أو يمسّ معتقدًا دينيًّا، ومع ذلك فهناك من يجهل ويغفل، فيقع في فخّ مصيدة الغاوين والمزيّنين والمضللين، التي تزداد ضيقًا على رقاب من يقع في فخّها كلّما حاول أن يرى نفسه غير مختنقٍ.

ومع أنَّ للألم أوجاعًا، وللتأزّم أوجاعًا، فإنَّ أكثر الأوجاع بين بني آدم ما يتركه الغدر والخيانة من ألم، فآلام الغدر والخيانة لا تموت، حتّى وإن سامحك من أجرمت في حقّه؛ ولذلك وجب الدِّراية وأخذ الحيطة والحذر، حتى لا يحدث الوقوع في فخّ المصيدة مرّتين.

أمَّا الحقد بين بني آدم فهو مثل حطب نار جهنّم يحترق قبل أن يحرق غيره، أي: إنَّ نار الحقد تحرق أوَّل ما تحرق حطبها (الحاقدين)؛ ولذلك فالحقد يُلهي الحاقد من بني آدم في نفسه، والحاقد في حقيقة أمره في حاجة لمن يطفئ عنه النَّار التي بها نفسه تحترق، ومن ثمّ فمن يعتقد أنَّه إذا تمكّن من عضّ يد أحد وعضّها، فلا شكّ أنَّ عضَّ اليد يفكر الآخر في أنيابه إن لم تكن له مخالب.

ولذا فإنَّ حُرقة الجهل والظّلم والعدوان والكيد والمكر والحسد عندما تشتعل نيران غضبها بين بني آدم فلا سبيل لهم إلّا الرّكون للتخلّف قيدًا، وفي المقابل الشّعوب دراية ترتقي علمًا ومعرفةً وتسامحًا وخبرةً وتجربةً، فتغزوا الأرض سلامًا، والسّماء بحثًا وارتقاءً.

وعليه: فبنو آدم بلا عقل ولا دراية وبلا أمل لا يعدّون إلّا أمواتًا وهم على قيد الحياة، والذين يأملون الارتقاء ولا يعملون من أجله فسيبقون على أملهم وكأنَّهم بلا أمل، أمَّا البعض الذي يأمل ويعمل ويفعل فلا شكّ أنَّه سيُسهم في إحداث النُّقلة دراية وارتقاء، وفي المقابل هناك من يهدم وهو لا يعتقد أنَّ الهدم سيقع على رأسه وكأنّه بلا رأس.

وهكذا بلا عقول ولا دراية هناك من يصدّق كلّ ما يقال، ثمّ يحمّسه بين بني آدم مثلما يحمّس القمح في الحمّاس؛ ولذلك لا ينبغي أن يكون بنو آدم سماعيّين فيصدّقون كلّ ما يقال، بل عليهم بالتذكّر اتعاظًا، وعليهم بالتدبّر تحليلًا وتفسيرًا وتخطيطًا وسلوكًا وعملًا، وعليهم بالتّفكّر دراية من أجل ما يجب حتى يتمكّنوا من الارتقاء من خلال ما يمارسونه من حقوق عن رغبة، وما يؤدونه من واجبات عن إرادة، وما يحملونه من مسئوليَّات وهم متحمّلون كلّ ما يترتّب عليها من أعباء جِسام.

وعليه:

فبنو آدم وهم تحت قيد العقل والدِّراية يصلحون أحوالهم ويعفون ويصفحون من أجل بلوغ ما يأملون رفعة وقمّة، ومع ذلك فهم في حاجة

للمزيد المعرفي الممكّن من زيادة الارتقاء قمّة، وخير وسيلة لذلك المزيد من البحث العلمي والمعرفي في الكون المتسارع اتساعًا وتمدّدًا.

والارتقاء بالنّسبة إلى بني آدم هو: أملٌ قابلٌ لأن يتحقّق ويتمّ بلوغه، ولكنّ مفهوم الارتقاء غاية لا يتّضح إلّا بمقارنة بين العُليا والدُّنيا؛ فالعُليا هي السّماء وما فيها من نعيم الجنّة وبقاء الحياة، أمَّا الدُّنيا فهي الأرض وما عليها من مخلوقات وزوال الحياة؛ ولذا فبين هذا وذاك وجد الإنسان نفسه بين التّخيير تارة، والتّسيير تارة أخرى؛ فالتّخيير (تؤمن أو لا تؤمن، تعمل صالحًا أو تعمل طالحًا، تَصدُق أو تكذب أو تنافق أو تدّعي ما تشاء....)، أمَّا التّسيير فلا خيار لأحدٍ فيه (حياة أو موت، شروق أو غروب، برق ومطر ورعد وصواعق وزلازل وبراكين وتمدّد كوني متسارع، ومفاجآت عظيمة....).

ولهذا فالارتقاء قمّة يمكّن بني آدم عقلًا ودراية من العيش الرّغد في الحياة الدّنيا (الزائلة) ويمكنّهم من العيش السّعيد في الحياة العليا (الباقية)، فبنو آدم عقلًا ودرايةً لا يقصرون أملهم على الحياة الزّائلة، التي يصرّون على أخذ نصيبهم منها، بل يقيّدون أملّ عيشهم فيها بأمل العيش في الحياة الدّائمة؛ ومن هنا فهم يعملون ويسعون إلى بلوغ المزيد المرضي ارتقاء.

العقلُ بلا دراية:

مع أنَّ مفهوم العقل يعني: الاستقامة والرّجاحة (رأيًا وعلمًا ومعرفةً ودرايةً) فإنَّ بعض النَّاس قد مالت عقولهم وحادت عن الدّراية، فبنو آدم

على الرَّغم من خَلقهم في أحسن تقويم، وعلى الرّغم من اصطفاء واجتباء الأنبياء والرُّسُل منهم، وبعثهم إليهم فإنَّهم لم يُخلقوا على الكمال، وهنا تكمن العلّة، التي تجيز ارتكاب المخالفات والمعاصي وارتكاب الخطايا التي منها ما يُغتفر، ومنها ما لا يُغتفر؛ ولذا فهم يقعون بين اختياراتهم المسئولة (عن دراية) وغير المسئولة (بلا دراية)؛ فإن كانت اختياراتهم مسئولة حفّزت ودفعت تجاه كلّ ما يحققّ لهم الارتقاء قمّة، وإن كانت اختياراتهم غير مسئولة حفّزت ودفعت تجاه ما يؤدّي بهم إلى الانحدار والدّونيَّة، ومن هنا يلد الخلاف خلافًا، فتشتدّ الخصومات والصّدامات بين من يرى المسئوليَّة ارتقاء، ومن لا يرها إلّا سلبًا ونهبًا وعبثًا.

ولذلك عندما تغيب المسئوليَّة دراية، يحضر الفساد والسّلب والنّهب والغدر والاقتتال المؤدّي إلى الدونيَّة، ولأنَّ بني آدم لم يُخلقوا على الكمال؛ فكان الضّعف فيهم رغبة وشهوة؛ حيث اختياراتهم بأيديهم: {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[29]، أي: إنَّ الضّعف والوهن هما مكمن العلّة الآدميَّة فمن يقوى من بني آدم ينهض ويرتقي دراية، ومن يضعف يستكين ويعوجّ انحرافًا بلا دراية؛ ولهذا بعث الله الأنبياء والرُّسُل الكرام يرشدون إلى ما يؤدّي إلى القوّة والارتقاء رحمة وعن دراية؛ فكان نوحٌ آية وبين يديه آيات النّهوض ببني آدم إلى ما يجب أن يكونوا عليه قمّة، ولكن معظم بني قومه

[29] النساء: 28.

كان الضّعف فيهم آية، فكذّبوه وكفروا به، وبما جاءهم به هداية وعن دراية.

فتلك الفترة التي بُعث إليها آدم نبيًّا قد انتهت، والخلاف على أشدّه بين بنيه الأوائل فبعث الله نوحًا لهدايتهم، ولكن شدّة الخلاف كانت عائقًا أمام هداية كثيرين منهم، فكان الطّوفان حلًّا فاصلًا بين من اتبع الحقّ هداية ودراية، ومن ضلّ عنه ضعفًا وانحرافًا وشهوة: {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}[30]. فالقليل هم الأقوياء الذين ارتقوا إلى ما يُمكّن من النّجاة، أمّا أولئك الضّعفاء فغرقوا ضعفًا ووهنًا.

وظلّت الحياة بعد الطّوفان العظيم مَحبّة ومودّة بين بني آدم الذين نجوا هداية وقوّة وارتقاء دراية، ولكن لأنَّ الذين أُهبط بهم ظلوا على الأرض الدّنيا على ما هم عليه من خلاف، فالخلاف قيدًا بين بني آدم لا مهمّة له إلّا إيقاد نار الفتنة، وهنا تكمن علّة الضّعف والوهن الآدمي؛ حيث بقاء الشّهوة والرّغبة الجامحة في نفوس من خلف بعض النّاجين؛ ممّا ولّد فيهم ما ولّد من خلافات وانحرافات وشدائد وتأزُّمات، وكأنَّ الطّوفان لم يحدُث آية، فضلّ من ضلّ إلى أن بعث الله إبراهيم نبيًّا ورسولًا، ثمّ بعث من بعده من بنيه أنبياء عظامًا؛ فكان خاتمهم محمَّد –عليه الصَّلاة

[30] هود: 40.

والسَّلام– نبيًّا ورسولًا بالرّسالة الخاتمة، وللنّاس كافّة، ولا إكراه في الدّين؛ حيث تبيّن الرّشد من الغي.

أمَّا بعد انتهاء فترات بعث الرُّسُل –صلوات الله وسلامه عليهم– فقد أصبح الأمر بين أيدي بني آدم وفقًا لرؤاهم ومدى ارتقائهم وأخذهم بالفضائل الخيّرة عقلًا ودراية؛ ولذا في زمن الرُّسُل لا وجود للأنظمة الحاكمة، بل الأمر كان بين السّماء والأرض إنباء ورسالات (أنبياء ورُسُل)، أمّا ما بعد الرّسالات والرّسُل فأصبح الأمر بين النَّاس شورى، وفقًا للإرادة والرّغبة والمقدرة والحاجة والحُجَّة العقليّة وعيًا ودراية: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[31]، والشورى هنا لم تكن خاصّة بالمسلمين، بل هي الحلّ فمن شاء الحلّ فعليه به ديمقراطية وشفافيَّة بلا مكاره.

ومن هنا كان الاختلاف والخلاف في معظمه بين من يحكم من، ومن يأخذ بما أنزلت به الرّسالات الخالدة قيد عقل ودراية، ومن يتخلّى عنه دونيَّةً وانحدارًا، وبين من يرى الحريَّة؛ حيث لا إكراه، ومن يرها تمدّدًا خارج الحدود، ومن يرها لا تكون إلّا وفقًا لما يفيد الأنا قيدًا، أو طائفته، أو قبيلته، أو حزبه، أو مدينته، وفي المقابل هناك من يرى الحرّية عدالة يستظل الجميع تحت مظلتها؛ حقوق تمارس، وواجبات تؤدّى، ومسئوليّات تُحمْل، وبين هذا وذاك لا يزال بنو آدم مختلفين وسيظلون إلّا من رحم ربّك.

[31] الشورى: 38.

ولأنَّ الاختلاف لن ينتهي بين بني آدم، إذن: فسيظل –بينهم حيثما بقوا على أرض–الاعوجاج قيدًا، ولا استغراب أن يخالف بعض النَّاس بعضًا، ولا استغراب أن يتصادم بعضهم مع بعضٍ، ولكن الاستغراب ألا تُصحّح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة تُصلح المعوجّ وتدفعه تجاه الحلّ دون هيمنةٍ وقيودٍ؛ أي: لا ينبغي أن يُلغى الاختلاف، بل ينبغي أن يلاحق الاختلاف حلًّا حيثما حلّ.

وعليه:

في زمن الرّسالات والأنبياء الكرام كان الحلّ يتنزّل على الأقوام والأمم والكافّة من السّماء، أمَّا في الزّمن الذي بعد رسول الكافَّة فلا نبيّ ولا رسالة بعد الرّسالة الخاتمة، فكلّ شيء قد أنزل، وبقي الأمر بين النَّاس شورى سواء أكان أمر النَّاس سلمًا أم حربًا، أم سياسة داخليَّة، أم سياسة خارجيَّة، ومن ثمَّ فما يتّفق عليه مَن يتعلّق الأمر بهم يُقدّر ويحترم ويعتبر، ثمَّ يُقرّ ويؤخذ به عملًا وفعلًا وسلوكًا، وفي المقابل لا يؤخذ بما يخالفه؛ لكونه معوجًّا.

ولذلك فالاختلاف والخصام والجدال والصّدام في زمن الرُّسُل قد تأسّس على الفضائل الخيّرة معها أو ضدّها، وهي الفضائل التي لا تستمدّ إلّا ممّا أنزل من عند الله؛ إذ: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[32]، و{وَأَمْرُهُمْ شُورَى

[32] البقرة: 256.

بَيْنَهُمْ}[33]، و{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[34]. إنَّها الفضائل التي لا تكون إلَّا ارتقاءً إنسانيًّا؛ ذلك لأنَّها فضائل طي الهوة التي تُختلق بين الحين والحين بين بني آدم علّة وعدم دراية.

أمَّا بعد اختتام الرّسالات والرّسُل فأصبح للقيم الاجتماعيَّة تقدير ومكانة إلى جانب تلك الفضائل الإنسانيَّة، أي: أصبح للخصوصيَّة الاجتماعيَّة أهميَّة ومكانة، ولتنوّع اللغات أهميَّة ومكانة، ولما يختاره ويقرّه النَّاس أهميَّة وضرورة، ومن ثمّ أصبح للدّساتير والقوانين المنفّذة لها أهميَّة مقدّرة بين الأمم والشّعوب؛ ولذلك فالأخذ بالقيم الحميدة يؤكّد أهمية تلك الفضائل الخيّرة في ترسيخ قيمة الإنسان وحفظ كرامته من خلال عدم إكراهه بأيّة علّة، ومن خلال مشاورته في كلّ أمر يتعلّق به وبمصيره، وفي المقابل من يغفل عن أهميّة ذلك سيجد نفسه شريكًا في كلّ ما يؤدّي إلى الفتن والانقسامات والصّدمات المؤلمة التي لا تكون إلَّا على أيدي المعوجّين عمَّا يجب أن يكون بين النَّاس محبّة ومودّة.

العقلُ والفكرةُ قيدًا:

مع أنَّه لا فكرة إلَّا والعقل من وراء ولادتها، فإنَّه لا قيد على العقل إلَّا والفكرة من ورائه، ولأنَّه العقل المولد للفكرة قيدًا فإنَّه وحدَهُ القادرُ على كسرها وإزاحة معوقاتها من طريق نهضته.

---

[33] الشورى: 38.

[34] الكافرون: 6.

والفِكَرُ هي مجموع الفكرة، والفكرة هي: تلك الصّور الذّهنيَّة التي تجعل العقل على حالة من التدبّر. وهي إنتاج العقل (داخليًّا وخارجيًّا)؛ فهي داخليَّة؛ لأنَّها مولودة العقل المتدبّر أمره، وهي خارجيَّة؛ لأنَّها نتاج المشاهد والملاحظ والمحسوس.

والفِكَر مفردات مستقلّة كلّ منها له دلالة موضوعيَّة وكأنّه لا علاقة بينها، ولكلٍّ منها خصوصيّة تميّزها عن غيرها، ومع أنَّها تتعدّد، فإنَّها لا تُجمع إلّا تصنيفًا وتبويبًا، وهي لا تكون إلّا نتاجًا بأسباب المحيّر أو الملفت للنّظر، ممّا يستدعي البحث حتى التمكّن من التبيّن.

والفكرة ولادة ذهنيَّة منتجة ومبدعة، وتتعلّق بشيءٍ معينٍ، ويمكن أن تكون نتاج المستفزّ الخارجي، ولكن حدودها الإبداعيَّة لا تتجاوز عقل المفكّر أو الباحث، وهكذا هو حال مجموع الفِكَر التي لا تلد الحلول إلّا منها.

أمَّا الفِكْر فهو الصّوغ العام للأفكار والرّؤى وفقًا لما يستنتجه الصّائغ ويفسّره، قبل أنْ يقدِّمه للغير؛ ليكون بين أيديهم نظريَّة متكاملة تفيد معالجة ما وقعت فيه المجتمعات من تأزُّمات سياسيَّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة. وقد يكون الأمر متعلّقًا بشأنٍ علمي فتكون النّظريَّة المتحصّلة خير ما يفسّر المشكل ويقدّم له حلًّا.

ولهذا عندما تكون الفِكَر (مجموع الفكرة) إنتاج العقل، يكون الفِكْر هو إعمال العقل وصوغه وتفسيره. والفِكْر هو نتاج تلاقح الأفكار وصوغها في بوتقة النظريَّات الاجتماعيَّة والإنسانيَّة والطبيعيَّة.

ومن ثمّ فالفِكْر هو عمل العقل في توظيف الفِكَر (مجموع الفكرة) بغاية تفسير الحقائق والنّظريَّات سواء أكانت في مجال العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة أم أنَّها في مجال العوم الطبيعيَّة، ومن هنا تصبح الفكرة مولدة العقل قيدًا عليه وعلى غيره من العقول التي قيَّدتها.

والفِكْر هو الصّوغ العام لما وصل إليه العقل البشري من نتائج وتجارب مع تطلّع ذهني لما يمكن أن يكون مأمولًا للأفراد والجماعات والمجتمعات، وتصوّر عملي يظهر القابليَّة للتطبيق وفقًا للنتائج المراد تحقيقها. وهو التنظير المرسّخ لسابق أو المطوّر له، أو المتضادّ معه، أو المتجاوز لما سبق بحلول جديدة ميسّرة، وهو أوسع من الفكرة، حتى وإن كانت الفكرة من ورائه حيرة وقيدًا.

فالفِكَر تلد الحلول، والفِكْر يتلقّفها ويوظّفها ثمّ يظهرها في صوغٍ مفسّر للظواهر. والعلاقة واضحة بين الفِكَر (مجموع الفكرة) والفِكْر الذي اتخذ صفته من العقل فكرًا؛ كونه لا يكون إلّا منه؛ ولهذا كان التطابق بين الاسم مع الصّفة؛ فالاسم فِكْر كونه ذو ذاكرة وذهن وله ملكات التمييز والتفاعل التي بدونها لا تنتج الفكرة ولا تصاغ الأفكار، وكونه صفة؛ لأنَّ الأمر يتعلّق بما صاغه الفِكْر من أفكار ونظريَّات ومعارف تعكس واقع

الفِكْر من حيث المقدرة على العمل المنتج، وهذا يدلُّ على العلاقة المباشرة بتلك المحفظة (الذّاكرة) وبذلك الذّهن العقلي الذي لا تكون المعارف إلّا به، وهنا تطابقت الصّفة مع الموصوف (الفِكْر الذي هو من الملكات العقليَّة مع الفكْر الذي هو ما يستخلصه العقل من حلول ومعالجات للمعضل البشري).

والفكرة القيد تحملها الكلمة وبها تُدفع وهي تحمل قضية تقدِّم حلّاً يُخرج من التأزُّمات؛ فيسود الفرج الذي فيه تحلّ السّكينة والأمن محلّ ما يؤدّي إلى الخوف؛ فالفكرة مكمن الأسرار، والعقل يُرشِدُ إليها عن تدبّر، والفكرة يسترشد بها عن دراية ومعرفة، ومع ذلك الفكرة يمكن أن تباع وتشترى في أسواق المنافسة الحرّة، وقد تُسرق.

والفكرة إن تمّ الإلمام بها وبما ترمي إليه من مقاصد الأفكار والأسرار هي مكمن الإبداع، وأصحابها دائمًا يأملون من الآخرين التوقّف عندها حتى التبيّن، ومع أنَّ الفكرة مكمن الأسرار فإنَّها من حيث معرفتها ووضوحها في ذهن صاحبها المتدبّر أمرها لم تكن كامنة، بل ظاهرة وضوحًا ومعرفةً، ولكنّها كامنة عن الآخرين حتى تُنتج إبداعًا مضافًا لما سبق من إنتاج فكري.

فالفكرة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع قد يُعظّم أصحابها، وقد يُحقّرون؛ فهي قد تفتح أمامهم آفاق سوق العمل، فتُسهِم في حلّ التأزُّمات، وقد تضيِّق سوق العمل عندما تنتج ما يحلّ محلّ الإنسان دون

أن تجد له بديلًا نافعًا؛ فتزداد البطالة وتتّسع دائرة الحاجة أمام ارتفاع كُلفة مشبعاتها وتزداد القيود قيدًا.

والفكرة في دائرة الممكن ذات تأثير سالبٍ أو موجب؛ فالذي يُنتجها فكرًا يعدّها إضافة موجبة، أمَّا مستغلّها إن وجد فيها ما يضر قد يتبناها ويحيلها صناعة لإنتاج المضرّ؛ وذلك مثال الذّرة، التي اكتشفت نفعًا ووظّفت فيما يضر قنابل وصواريخ؛ ومن هنا أصبحت الفكرة تباع في الأسواق بفاعليّة تضادّها؛ سالبٌ بسالبٍ، وموجبٌ في مواجهة سالبٍ، وسالبٌ في مواجهة موجبٍ.

إنَّها الفكرة المتضادّة التي لا يمكن التخلّص منها إلّا بفكرةٍ تنج ما يفيد وينفع ويحقّق الطمأنينة لمن افتقدها بمواجع وفواجع الفكرة المضرّة.

ولمتسائل أن يتساءل:

هل الفكرة هي علّة التضاد بين المسلمين وأهل الغرب؟

أقول:

نعم.

فتلك الفكرة التي أنتجت رؤية لاحتلال واستعمار الأوطان جعلت للعداء تاريخ يصعب محوه ما لم تسوّى القضايا المطالبة بالتعويض؛ فذلك الاستعمار (نتاج الفكرة) الذي جاء غازيًا للدّول وبخاصّة التي لها معتقد ديني لا يسمح لها أن تركع ولا تسجد إلّا لله تعالى، عليه أن يفكّر في

تسوية موضوعيَّة مؤسّسة على التقدير والاحترام، أمَّا الفكرة التي تؤدّي إلى مزيد من التهديد والمواجهات لا تزيدهم إلّا إصرارًا على قبول التحدّي مع مزيدٍ من الرّغبة في نسف جسور الخوف؛ ذلك لأنَّ معتقدهم جعلهم بين خيارين:

أ ـ النّصر.

ب ـ الاستشهاد.

وعليه فمن يقول: (الله أكبر) من أعلى المآذن يعلن أنَّه قد نزع الخوف من نفسه بمخافته الله؛ ولهذا من يعتقد أنَّه قادر على إخافته سيجده مطالبًا بالموت من أجل الحياة، ولا مكان في نفسه لاستقرار الخوف، وإن حدثت المواجهة من أجل إحقاق الحقّ سيجد نفسه مُقدِمًا بالقوّة وهو متأكد أنَّه قد ضمن النتيجة المرضية (نصرًا أم استشهادًا) أي: بالنسبة له في الحالتين لا هزيمة.

وقد يتساءل البعض:

وما هي المبرّرات التي أقنعته بأنَّها لا هزيمة؟

أقول:

بدون شكّ المبررات هي؛ الخوف من الله تعالى.

وعليه أنَّ ما يجري في أوطان المسلمين هو مولود فكرة: (فرّق تسد)؛ فكانت الفُرقة بين المسلمين (إيرانيون وعرب) و(أفغان وباكستانيون

وأتراك) و(مسلمون هنود ومسلمون باكستانيّون) و(سنّة وشيعة) و(حماس وفتح) و(إخوان وبعثيّون وناصريّون، وشيوعيّون وحكومة وشعب....إلخ) و(عرب وأمازيغ) و(طوارق وتبو) إلى جانب (عرب مسلمين، وعرب مسيحيين، أكراد، وعرب دروز، وتركمانستان....إلخ)، وفوق كلّ هذا فالمسلمون جميعهم وبخاصّة العرب منهم متّهمون بأفعال الإرهاب والتطرُّف، ولكي تكتمل الفكرة تأسّست دولة (إسرائيل) في فلسطين عن قصد؛ لعلّتين رئيستين هما:

أ ـ كُره صاحب الفكرة للعرب؛ ليعاقبهم بمن يكره.

ب ـ كُره صاحب الفكرة لليهود، جَعله يقرّر عِقابهم مرَّتين:

الأولى: سلبهم حقّ المواطنة الذي أقرّه لهم في أوروبا، وكذلك سلبهم دورهم التجاري فيها.

الثَّانية: لتنتقل الاضطرابات من أوروبا وتُدفع إلى خارجها، ويتمّ القضاء عليهم من قبل الذين عبر التَّاريخ لم يستسلموا لعدوٍّ من أعدائهم، ولكن لن يُسمح لهم بالقضاء عليهم إلَّا بعد أن يؤدّوا رسالتهم تخريبًا وفتنةً وتفكيكًا للمكوّن الاجتماعي العربي كما سبق أنْ أدّوها في أوروبا وعوقبوا عليها تقتيلًا وتحريقًا وتهجيرًا وتشريدًا.

وعليه: فإنَّ كره صاحب الفكرة لكلٍّ من اليهود والعرب، هو الذي جعله يتّخذ قرار إقامة دولة إسرائيل في أرض العرب (فلسطين)حتى وإن

كان بعض اليهود من مكوّناتها، وللتّاريخ شواهد على كرههِ لبني إسرائيل حيث جاءت الحركة الصّليبيَّة وما صاحبها من تطرُّف ديني وهوس لتصبَّ مزيدًا من السّخط على نيران الكراهيّة ضدّ اليهود الذين اشتهروا بالتّجارة كما اشتهروا بالمراباة في استغلال الفقراء في أوروبا، ممّا جعل نيران غضب الفقراء في أوروبا تشتعل ضدّ اليهود الذين يعتبرونهم المفسدين فيها.

ولما كان المرابون في أيِّ مجتمع محلّ كراهيّة النَّاس وحقدهم، فإنَّ الغطاء الدِّيني الذي وفّرته الحركة الصّليبيَّة للغضب ضدّ اليهود يسّرَ لجموع الصّليبين الهائجة أن تنتقم لنفسها من المستغلّين؛ فكانت مذابح سنة 1096 ضدّ يهود شمال غرب أوروبا، وكانت كلّ حملة صليبيَّة تالية ترتكب مذابح مماثلة ضدّ اليهود، بحيث عاشت الجماعات اليهوديَّة بشكلٍ مستمرّ في ظل العزلة والخوف. ولقد امتدّت النزعة العدائيَّة لليهود باعتبارهم مِن أعداء المسيح والكنيسة؛ فكانت المذابح متوالية، ومنها: مذابح اليهود في لندن ويورك في 1189- 1190 في بريطانيا. ومذابح ضدّ اليهود في إسبانيا ارتكبتها المسيحيّة في قرطبة وغرناطة، وحتّى الأرثوذكس المسيحيين في أوروبا الشرقيّة لم يتركوا فرصة للاعتداء على اليهود إلّا واستغلّوها، ومنها مذبحة اليهود خلال انتفاضة الأكران الأرثوذكس في 1648-1654[35].

[35] Posted by FILKKA ISRAEL at Wednesday, February 18, 2009

ومنذُ بدايات الاتصال والتدافع بين الأوروبيين واليهود والعداء مستمرّ بينهم، والقيود القانونيَّة تُسن ضدّ اليهود إلى سبتمبر عام 1791م حيث تمّ تحرير اليهود في فرنسا؛ بإزالة أشكال التمييز العنصري القانوني ضدّ اليهود، ومنحهم حقوقًا مساويةً مع غيرهم من مواطني البلد؛ ففي سبتمبر عام 1791م منح البرلمان الفرنسي اليهود حقوق المواطنة، ثمّ تمَّ تحرير اليهود بعد ذلك في اليونان عام 1830م، وفي بريطانيا عام 1858م، وفي إيطاليا عام 1870م، وفي ألمانيا عام 1891م، وعلى الرّغم من أنَّ المساواة المدنية التي مُنحت لليهود كانت قانونيّة، فإنَّ يهود أوروبا ظلوا يلاقون مضايقات من خلال معاداة السَّاميّة والتمييز الاجتماعي؛ فجاءت مذبحة 9 من مارس عام 1936م ببولندا؛ حيث اندلع عُنف قُتل فيه ثلاثة يهود وجُرح أكثر من ستّين آخرين في مدينة برزايتايك، وبعدها امتدّت نيران الكره اشتعالًا إلى المدن المجاورة، وقبل انتهاء المذبحة، قُتل ما يقارب من 80 يهوديًّا وجُرح أكثر من 200.

وفي التّاسع من نوفمبر 1938م بدأت السّلطات الألمانيَّة تقوم بهدم منازل اليهود وممتلكاتهم، وفي السّنة التالية 1939م كان قد رُحِّل عدد كبير من اليهود إلى بولندا، واستقرّ أغلبيتهم في وارسو، وكان آنذاك عدد اليهود 400 ألف يهودي تقريبًا، لكن هتلر كان وراءهم بالمرصاد؛ فضيّق عليهم سُبل الحياة، وكانت فكرة هتلر لإبادة اليهود من العالم قد دخلت حيّز التنفيذ بالقوّة العلنيّة منذ مجيئه إلى السّلطة في سنة 1933م، وبدأ

بمطاردتهم من كلِّ النواحي، وحرمانهم من العمل، ومطالبتهم كذلك بدفع الضرائب، هذا الأمر في حقيقته لم يكن إلّا بداية انتقام هتلر من اليهود، حيث كان يعيش في ذلك الوقت نحو ثلثي يهود العالم في أوروبا، وعندما غزت الجيوش الألمانية روسيا في يونيو 1941م أعدَّ هتلر خُطَّة قتل جماعي، لكلّ اليهود وجمع اليهود في معسكرات خاصَّة على أساس وجود مهمّة عسكريَّة، ثمّ أُصدرت الأوامر بأن يحفر كلّ واحد منهم قبره بيديه، ثمّ اصطفّ اليهود صفًّا واحدًا بجوار قبورهم وأطْلِقَ عليهم الرّصاص، ولم يكتف هتلر بهذه الطريقة في إبادة اليهود ومحو آثارهم من العالم، بل أعدَّ لهم طرقًا أخرى للموت؛ حيث أقام لهم الألمان أفرانًا خاصّة لحرقهم، واستمرت عملية الإبادة إلى 1945م.

وإبادة هتلر لليهود كانت نتاج دوافع انتقاميّة؛ فكان الانتقام شرسًا بعلل ما سبّبه اليهود من تخريب للاقتصاد الألماني وما قاموا به من فتن لتفكيك وحدة الشّعب الألماني وإذلاله.

وهنا يذكّرنا تاريخ 9 نوفمبر 1938م بتلك الفكرة، فكرة تقسيم فلسطين لدولتين (اليهود والفلسطينيّون) حيث كانت اللجنة الملكيّة البريطانيّة التي ترأسها (الإيرل بيل) قد نشرت تقريرها في شهر تموز سنة 1937م واقترحت فيه حلًّا لمعضلة فلسطين بواسطة مشروع للتّقسيم، تنشأ بموجبه دولة عربيّة مستقلة وأخرى يهوديّة، ثمّ أعلنت عزمها على

إسقاط اقتراح التقسيم ومحاولة إيجاد تفاهم بين العرب والإسرائيليين عن طريق المفاوضات المباشرة في لندن[36].

وعليه: فإنَّ كُره الأوروبيين لليهود في أساسه هو أشدّ **كرهًا** مِن كرههم للعرب، ولأنّ الأمر كذلك قرّر الأوربيّون ما أقرّته بريطانيا دولة لليهود في فلسطين (أَبْعِدْ المكروهَ وادْفَعْهُ تجاه المكروه تشتدّ التأزّمات بينهم وتأمن)، فكرة في عالم السياسة لا تساويها فكرة في الدّهاء.

ولسائل أن يتساءل:

ما المقصد من وراء هذه الفكرة قيدًا؟

المقصد إشعال نار الفتنة في الأمَّة التي لا تركع إلّا لله تعالى لعلّها تركع، ومع أنَّ أصحاب الفكرة قيدًا يعرفون جيّدًا أنَّ من يركع يقينًا لله لن يركع لأحدٍ، فإنَّهم واثقون على الأقل أنَّه من الممكن العمل على بعضِ أبناء الأمّة بغاية بثّ الفوضى وغرس شيء من المفاسد الضارة للذّمم والنّظم السّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة ومن ثمَّ يجد صاحب الفكرة مبرّرًا للتدخّل، وهذا ما تخفيه الفكرة في ثناياها قيدًا.

ونحن نعتقد أنَّ الفكرة في دائرة الممكن كالبذرة تُزرع بذرة؛ فتنتج بذورًا؛ ولذا فتلك الفكرة التي نضجت وقُطفت ثمارها ذات مرّة ومرّة (احتلال يليه احتلال)، و(تقسيم يتبعه تقسيم)، هي اليوم من جديد قد

[36] هتلر قاهر اليهود، 2009.

بُذرت في الأرض المهيّأة لها؛ فظهرت أوراقها فوضى في الصومال والعراق وسوريا وليبيا واليمن، وهي كذلك في غيرها بذرت ولكنَّها على قوائم الانتظار.

وهكذا هو الأمر في القارة الإفريقيَّة التي توَجَّه إليها أصحاب الفكرة (استثمارًا واستغلالًا)، وفي المقابل شعوبها وحكوماتها تتدافع إليهم هجرة واستقراضًا، إنَّها علاقة تمازج الألوان، وعليه ستختلط الدّماء بين القارَّتين الأفريقيَّة والأوروبيَّة تدافعًا (استثمارًا واستعمارًا وهجرةً)؛ فتتغيّر الألوان من (أحمر وأسود) إلى دمٍ جديدٍ في البرلمانات والحكومات الأوروبيَّة تحت الشّعار: (الأسمر المحمرّ) المجنّس تجانسًا، وفوق ذلك كلّه سيميل شكل العيون في القارة الإفريقية إلى الصّينيَّة[37].

الفكرةُ قيد خوفٍ ودرايةٍ:

الفكرةُ نُضجٌ تدبّريٌّ تحمل في أحشائها حلًّا، والخوف دائمًا يبحث عن حلٍّ؛ فالخوف يثير العقل تفكّرًا وتذكّرًا وتدبّرًا حتى يقتنص الفكرة التي فيها يكمن الحلّ، ولن يكون الخوف أمنًا إلّا في الفكرة المقتنصة حلًّا يُخرج من التأزُّمات؛ فيسود الفرج الذي فيه تحلّ السَّكينة والأمن محلّ ما يؤدّي إلى الخوف؛ ولهذا فالفكرة مكمن الأسرار، والعقل قيدٌ يُرشِدُ إليها عن

[37] عقيل حسين عقيل، من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي، القاهرة: 2017م، ص 35 – 44.

تدبّر، والفِكْر يسترشد بها عن دراية ومعرفة، والفكرة يمكن أن تباع وتشترى في أسواق المنافسة الحرّة، وقد تُسرق.

إذن: الفكرة بعد أنْ يتمَّ الإلمام بها تنكشف أسرارها، ويُكسر قيدها، وتفهم مراميها؛ ومن ثمَّ يصبح لها مجتمعٌ وقد اتصف بها قيدًا؛ فالمدينة الفاضلة على سبيل المثال فكرة فرديّة تحمل رؤية، حاول بعض الفلاسفة سعيًا في تطبيقها، ومع ذلك لم تظهر الفضيلة في تطبيقاتها؛ ذلك لأنَّ ما تمّ وصفه (بالفكرة الفاضلة) في ذلك الزَّمان لا يُعدّ فاضلًا في زماننا؛ وذلك بأسباب معرفة القصور في تلك الفكرة؛ ولهذا لم تتحقّق المدينة الفاضلة بتلك الفكرة والرّؤية التي تحملها ولن تتحقّق؛ لأنّها فكرة والفضيلة منعدمة.

إذن: المجتمع في أساسه لم يكن نتاج فكرة، ولكن بالمعرفة الواعية أصبح ينتظم على قيم وفضائل وفكرة، هذه الفكرة قد تكون اجتماعيَّة وقد تكون اقتصاديَّة وقد تكون سياسيّة؛ ولهذا تكوّنت المجتمعات الرَّأسمالية على فكرة رأس المال، وتكوّنت المجتمعات القبليّة والعشائريّة على فكرة: (الإنسان اجتماعي بطبعه)، وتكوّنت المجتمعات الإسلاميّة على فكرة المعتقد المستمدّ من الدّين الإسلامي.

وعليه: فالفكرة قوّة تفاعل تتولّد من فروض مجرّدة، وتساؤلات حُرّة؛ وبها يُلهم من ألمت به وسكنت قلبه وعقله، وبها تتغيّر الأحوال إن تلقّفتها أيدٍ منتجة، تُدرك الواقع وتتطلّع للمستقبل، بعد أن تخلق سوقًا للعمل.

فالفكرة تُلفت انتباه العقل لأنْ يعقل ما كان عنه غافلًا، وتدفعه تجاه الآخرين ليكون من أجلهم، ولكن البعض يستطيعون أن يحرِّفوا الكلم عن مواضعه، فيتمّ الانحراف بالفكرة.

وعليه: فإنَّ الفكرة المجرّدة لا يمكن أن تتجاوز حدود العقل؛ فإن تجاوزته تجسّدت على أرض الواقع، وإنْ لم تتجاوزه ستظلّ سجينة جدران قيده إلى أن تُقبر مع صاحبها، ولكن من حيث كونها فكرة؛ فهي قابلة لأن يُبرهن بها، وقابلة للاستدلال عليها، وكشفها حتى معرفة مكامن أسرارها.

ولمتسائل أن يتساءل:

ألا يمكن للفكرة أن تتغيّر؟

نعم. تَحسُّن الأحوال يُغيّر الفكرة.

وكيف يمكن أنْ تتحسّن الأحوال؟

بالاستيعاب الذي به تَحلّ الطمأنينة محلّ الخوف.

ولهذا يجب أن يكون الاستيعاب بلا تردّد مع تقبُّل وتفهّم للخصوصيَّات حتى بلوغ الحلّ؛ ذلك لأنَّ الاستيعاب يجمع الشَّمل، ويمكِّن من الوقوف على نقاط التمركز والتشتُّت في مواضع الالتقاء والفرقة، ممّا يستوجب الأخذ بنقاط الالتقاء واعتمادها جزءًا من الحلّ، ونقاط الاختلاف واعتمادها هي الأخرى جزءًا من الحلّ؛ ولذا فإنَّ الإلمام بالحالة

وظروفها المتنوّعة والمتغيّرة والمتباينة والمتصادمة يُمكّن الجميع من معرفة العلل والأسباب مكامن الإصلاح والحلّول؛ حيث لا حلّ إلّا ونابع من عِلّةٍ أو سببٍ؛ فالاستيعاب مع أنَّه يؤدّي إلى الحلّ، فإنَّه لا يُمكِّن منه، بل الذي يمكِّن منه هو الخوف؛ فخذوا حذركم حتى يصبح الحلّ بين أيدكم.

ومن أجل ألا يكون للتطرّف دائرة يمتدّ فيها أفرادًا وجماعات ومؤسّسات ودولة ورأس دولة، علينا أن لا نستهين بالآخر؛ فلا نلغيه ولا نخاف منه، ولا نغيّبه، ولا نقصيه من شيء ينبغي أن يكون له أو يكون شريكًا فيه؛ ومن ثمّ فعلينا أنْ نفكّر في العواقب قريبها وبعيدها.

ولمتسائلٍ أنْ يسأل:

متى تلد الفكرة للنَّاس حلًّا؟

- عندما يتمكّنون من ممارسة حقوقهم.
- عندما يلتزمون بتأدية واجباتهم.
- عندما يكونون قادرين على حمْل مسئوليَّاتهم.
- عندما يكون لسان حالهم: (نحن معًا).
- عندما يتمكّنون من استيعاب بعضهم بعضًا (هم كما هم).
- عندما يتمكّنون من التطلُّع نحو الأفضل.
- عندما يتهيَّؤون لإحداث التغيير المحدث للنُّقلة.

. عندما يقدّرون التخصّصات ويلعبون أدوارهم وفقًا للصلاحيَّات والاختصاصات.

. عندما يتفهَّم كلّ منهم ظروف الآخر ويقدِّرها.

. عندما يقف كلّ منهم عند حدّه.

. عندما يُقصى الإقصاء والتغييب من أذهانهم وأفكارهم تجاه البعض.

. عندما يستثمرون إمكاناتهم المادّيَّة الاستثمار الأمثل، تمشّيًا مع كلّ حلقة من حلقات التطوّر والتقدّم التقني والعلمي.

. عندما تُشبع حاجاتهم المتطوِّرة.

. عندما يكون التطلّع للمفيد والنافع قيمة في السّلوك والفعل.

. عندما تصبح ثروة الوطن ملكًا للمواطنين وفقًا لقاعدة (نحن معًا) دون أيِّ حرمان من الملكيّة الحرّة والاستثمار الحرّ الخالي من الاستغلال والاحتكار.

. عندما تُلغى من القواميس الفكريَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة كلّ كلمات الإفساد وما يؤدّي بينهم إلى هدر الوقت.

. عندما تسود بينهم قيم التسامح والتآخي والبناء والإعمار والإصلاح.

. عندما يكسرون قيد الفكرة بالفكرة.

. عندما تكون مستهدفات التعليم والصّحة والثَّقافة والإعلام والشئون الاجتماعيَّة من أجل التنمية البشريّة التي بها يتمكّن المواطن من تنمية قدراته واستعداداته ومواهبه وخبراته ومهاراته وتأهيله بكلِّ جديد مفيد.

. عندما تصبح لهم هويّة واحدة متنوّعة.

. عندما يصبحون منتجين للفكرة وقادرين على توليد الفكرة من الفكرة.

. عندما يصبحون قادرين على التفكير وهم يتكلّمون وهم يقرؤون، وهم يستمعون ويتأملون فيما هو مجرد ومحسوس.

. عندما لا يغفلون عن أهميّة الخوف في صناعة التّاريخ وترسيخ الهويّة.

. عندما يكسرون قيد الخوف بمخافة الله.

. عندما يفرّقون بين أفعال الخوف والجُبن.

. عندما يتطلّعون إلى الآخرين معرفة بمعرفة، ومعلومة بمعلومة، ودراية بدراية.

. عندما تكون لهم إدارة ماهرة قادرة على أن تلاحق المنتجين والعاملين في مواقعهم من أجل زيادة الإنتاج وتحسين أحوال المواطنين تعليمًا وصحةً وضمانًا اجتماعيًّا مع وافر الجودة في الخدمات المقدّمة. ولذا فالإدارة المركز ينبغي أن تكون قوّة جذب لمواطنيها، تجمع ولا تشتت كالجاذبيَّة التي جمعت شتات الأرض وحافظت عليه، والتي إن فقدت جاذبيّتها فقدت وجودها.

. عندما يعرفون أنَّ عقل الإنسان قوّة، ونفسه قوّة، وحواسه قوّة، وعواطفه قوّة، ومشاعره قوّة، وإرادته قوّة، وتهيّؤه قوّة، واستعداداته قوّة، وقراره قوّة، وتأهبه قوّة، وأفعاله نتاج القوّة، مع وافر التقدير والاعتبار.

وعليه: كلّ معطيات القوّة يمكن أن تكون بيد الإنسان إذا عرف أنّ عقله قوّة، وقدراته قوّة، ومهاراته قوّة. وإذا فكّر وخطط، ومن ثمّ رسم الإستراتيجيَّات وأنجز أهدافه بكلّ قوّة.

ولهذا فإنّ قوّة: (نحن معًا وسويًّا) تكمن في:

. قوّة العلائق وترابطها.

. قوّة المشاركة وحجمها.

. قوّة التفاعل وتماسكه.

. قوّة التنظيم وتشريعاته.

. قوّة الدّين وتسامحه.

. قوّة العرف وأصالته.

. قوّة القوانين وشفافيّتها.

. قوّة الفكر ونزاهته.

ولذا إنْ أردنا أن ننهض من غفلتنا ونستطلع مستقبلنا ونعمل على صُنعه، فعلينا بالمعرفة الواعية التي تُمكِّن من الاستنارة والدّراية، وعلينا

بتيسيرها بين النَّاس دون تطرُّف ولا إكراه؛ فلا ينبغي أن يكون من ورائها قصد لتحقير مَن خُلق في أحسن تقويم، ولا قصد من ورائها لإقصائه ولا تغييبه أو التخلّص منه؛ فكما أنَّ الدين للجميع والله ربّ الجميع؛ فكذلك الوطن ملك للجميع والنَّاس فيه متساوون حقوقًا وواجبات ومسئوليَّات، ومن يرى غير ذلك فستكون نظرته هذه عتبة بين قدميه ويا ليته يراها[38].

ومع أنَّ العقل قيدٌ، فإنَّ النَّفس تتهرَّب منه ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا، فهي تراوده بما يراودها من حبِّ شهوة، وهو المبيّن لها المحاذير والمغريات السَّالبة والموجبة، ثمّ يترك لها الاختيار وفقًا للمقدرة ومدى التزامها بقيود العرف والدِّين قيمًا وأخلاقًا؛ ذلك لأنَّ العقل لا علاقة له بالرّغبة والشّهوة فهذه ذات علاقة بالنّفس المتعددة الطّبائع.

ولهذا فمع أنَّ العقل قيد على النّفس فإنَّها قادرة على التهرّب من قيوده، ومع ذلك سيكون رقيبًا عليها، وحافظًا لسيئات اعمالها ومحاسنها، وسيكون قادرًا على مواجهتها حُجّة عندما يتم استدعائه شاهدًا على أعمالها الفاقدة للحجّة.

[38] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م، ص 277 . 319.

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف الدكتور عقيل حسين: 92 بحثا نشرت داخل ليبيا، وخارجها.

صدر له (170) مؤلّفا منها: خمس موسوعات.

أشرف، وناقش 83 رسالة ماجستير، ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة، والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميَّات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية، والتركية.

المؤلّفات

1 ـ مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 ـ الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3ـ فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 ـ منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 ـ سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 ـ المفاهيم العلمية دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربية للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 ـ البستان الحلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 ـ التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 ـ الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا، 2001م.

10 ـ نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 ـ خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 ـ منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 ـ خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 ـ خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 ـ البرمجية القيمية لمهنة الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 ـ البرمجية القيمية في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 ـ البرمجية القيمية في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 ـ البرمجية القيمية في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 ـ مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 ـ المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت ـ دمشق، 2009م.

22 ـ موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

23 ـ ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

24 ـ مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

25 ـ خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

26 ـ قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

27 ـ أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

28 ـ آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

29 ـ نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

30 ـ إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

31 . إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

32 . شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

33 . يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

34 . داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

35 . يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

36 . أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

37 . موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

38 . عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

39 . محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

40 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 ـ موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 ـ التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 ـ ألسنا أمةً وسطا، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

53 ـ المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

54 ـ الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 ـ الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 ـ سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 ـ خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقّع وغير المتوقّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 . من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 . من قيم القرآن الكريم (قيم تدبّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 . من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 . من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 . من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 . من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 . من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 . من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 . من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 ـ من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 ـ الرفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 ـ تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 ـ ربيع النّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 ـ موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 ـ أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 ـ وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 ـ ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 ـ العزل السياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 ـ السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 ـ الهويّة الوطنية بين متوقّع وغير متوقّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 ـ العفو العام والمصالحة الوطنية، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 ـ فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 ـ بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 ـ من معجزات الكون (خَلق ـ نشوء ـ ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 . مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 . آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 . إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 . نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 .

90 . هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 . صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 . لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 . إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 . إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 . إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 . يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 . يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 . شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 . أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100. ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 . يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 . موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 . هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 . إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 . اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 . داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 . سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 . زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 . يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 . محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 . الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 . صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 . الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 . مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 . من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 . التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 . منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 . الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 . المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 . تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 . الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 . مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 . المعلومة الصائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 . الممكن (متوقّع وغير متوقّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 . مبادئ فكّ التأزّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

127 . الأهداف المهنيّة ودور الأخصائي الاجتماعي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

128 . تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

129 . العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

130 . غرس الثّقة (مبدأ الخدمة الاجتماعيَّة)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

131 . مفاهيم الصّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م.

132 . الخدمة الاجتماعيَّة (قواعد ومبادئ قيميّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

133 –كيفيّة استطلاع الدراسات السَّابقة مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

134 – الخدمة الاجتماعيَّة (تحليل المفهوم ودراسة الحالة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

135 – الخدمة الاجتماعيَّة (مبادي واهداف قيمية) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

136 – الخدمة الاجتماعيَّة (مفاهيم مصطلحات)، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

137 – التنمية البشرية (كيف تتحدّى الصّعاب وتصنع مستقبلًا)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2018م.

138 - مبادئ الخدمة الاجتماعيَّة (تحدّي الصّعاب وإحداث النُّقلة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

139 _ الإرهاب بين خائف ومخيف، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

140 _ التطرُّف من الإرادة إلى الفعل، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

141 _ البحث العلمي (المنهج والطريقة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

142 _ العدل ينسف الظلم، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

143 _ تقويض الإرادة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

144 _ القوَّة تفكّ التأزُّمات، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

145 _ إحداث النُّقلة تحدٍّ، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

146 _ نيل المأمول قمَّة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

147 _ نحو النظريَّة خلقًا، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

148 _ نحو النظريَّة نشوء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

149 _ نحو النظريَّة ارتقاء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

150 – الخلاف (في دائرة التاريخ) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

151- القواعد المنهجية للباحث الاجتماعي والقانوني، القاهرة: دار القاضي، 2220.

152 – قواعد البحث للعلوم الاجتماعية والإنسانية، 2020م.

153 – خطوات البحث العلمي وصناعة الأمل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

154 – المنهج العلمي وإحداث النُّقلة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

155- دراسة الحالة ودور الأخصائي الاجتماعي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

156- قواعد البحث العلمي وصنع المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

157- وسائل التأهب للبحث العلمي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

158- حلقات صناعة المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

159- أمحمَّدٌ أميٌّ، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

160- طرق البحث العلمي ونيل المأمول، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

161- الطريقة العلمية لتحليل مضمون القيم، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

162-كسر الوهم، القاهرة: مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

163- معجزات وبعضها من بعض، المصرية، القاهرة: 2022م.

164 . أيد السارقِ تقطع، المصرية، القاهرة: 2022م.

165 – العقل من اللاشيء إلى الشيء دراية، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

166 – النُّقلة من التكيف إلى التوافق، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة 2022م.

167 – أوهام الأنا (اللاهويَّة)، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

168 – استرداد السيادة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2022م

169 – موت الموت، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2022م.

170 – العقل قيد (من الأمّية إلى الاستنارة)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2022م.

المؤلّف في سطور

أ د. عقيل حسين عقيل

مواليد ليبيا 1953م

بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الأولى جامعة الفاتح (طرابلس).

ماجستير تربية وتنمية بشرية جامعة جورج واشنطن 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعيَّة.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب من قبل مؤتمر الشعب العام مفتشا عامّا لقطاع الشؤون الاجتماعيَّة، ثمّ كلّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينا عاما للتنمية البشرية بأمانة مؤتمر الشّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 92 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له (170) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

. أشرف وناقش 83 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

الموقع الإلكتروني: (موقع الدكتور عقيل حسين عقيل)

أو: https://draqeel.com/